هرمان هسّه

سيدهارتا

ترجمة وتقديم

فؤاد كامل




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سيدهارتا

تأليف

هرمان هسه

ترجمة وتقديم

فؤاد كامل

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

تصدير

بقلم المترجم

يتحدث الإنسان عن نفسه عندما يتحدث عن الآخرين . ولا تعجبنا أحاديث الآخرين إلا إذا وجدنا فيها أنفسنا ..

وقد أحببت قصة « سيدهارتا » - و « سيدهارتا » كلمة سنسكريتية معناها « الرجل الذى بلغ هدفه » - لأسباب كثيرة . وأخادع نفسى إن لم أقل أن هذه الأسباب ترجع فى معظمها إلى أننى وجدت شطرا كبيرا من نفسى فى هذه القصة .

والواقع أن قصة « سيدهارتا » على الرغم من الجو الهندى الأسطورى الذى نُسجت فيه ، يمكن أن تكون رواية كل إنسان يسير فى طريق البحث عن ذاته الذى يؤدى فى نهاية المطاف إلى معرفة الله سبحانه وتعالى : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » .

أحببت « سيدهارتا » لأنها قصة البطولة الروحية . البطل فيها هو الروح التى تسعى إلى الخلاص وإلى معرفة الحقيقة عن طريق التجربة الحية والانغماس فى الواقع ، لا عن طريق

التجريدات والجلوس على المقاعد الوثيرة فى الحجرات المغلقة .

أحببت قصة « سيد هارتا » لأنها وجودية ، ولا أظن أن مؤلفها قد تعمد إضفاء هذه الصفة عليها ، بل إنه حريص على التخلص من كل مذهبية كما ينعكس ذلك فى سعى بطله الروحى الذى أراد الانعتاق من أسر المذاهب والتعاليم أيا كانت - ولكننى أصفها بهذا الوصف على هذا الأساس نفسه ، أى بالمعنى الذى تؤخذ به الوجودية على أنها انتفاء لكل مذهب .

والنغمات المشتركة بين الوجوديات المختلفة نجدها معزوفة عزفا كاملا فى هذه القصة الفريدة : ففيها تجد تلك الرغبة العارمة للبحث عن الذات ، وذلك التوق المتقد لمعرفة النفس ، والسير فى طريق البحث عن الحقيقة دون اعتماد على الآخرين أو اتكال على خبراتهم وتعاليمهم . ويتلخص هذا كله فى الطابع الفردى والشخصى جدا فى البحث والخلاص على حد سواء (وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) ، والإلحاح على الفردية واضح كل الوضوح فى هذه القصة .

ولهذا ظل البطل ينتقل من طائفة إلى أخرى متجاوزا كل التعاليم والمذاهب المختلفة لتكون له تجربته الخاصة وطريقته الشخصية فى الوصول إلى الحقيقة . والتجربة الحية من أهم سمات الوجوديات الحقة ، فعن طريق التجربة والتجربة وحدها ، يمكن أن نصل إلى المعنى الحقيقى للوجود . وهذا

ما نجده متمثلا أصدق تمثيل فى « سيد هارتا » الذى ترك نفسه للتجربة وانغمس فى الحياة حتى أعمق أعماقها ، وشرب من كأس المعاناة الإنسانية حتى الثمالة . وبهذا اغترف من النبع الأصيل للوجود . قد تبدو هذه العبارات مجرد ألفاظ رنانة جوفاء ، وقد كان « سيد هارتا » يمقت الألفاظ ، ولا يعترف بغير الأشياء ، بيد أن هذه الألفاظ تمتلئ مضمونا ومعنًى بعد العناء والمكابدة ، وعلى من يريد أن يتحقق من صدقها أن يكابد الشوق ويعانى الصبابة :

لا يعرف الشوق إلا من يكابده
ولا الصبابة إلا من يعانيها

وبالإضافة إلى هذا كله نجد النغمات الرئيسية فى الوجوديات بارزة فى تجربة « سيد هارتا » الحية كما عرضها « هرمان هسه » ذلك العرض الشاعرى المشتعل حبا ووجدا للحياة والأحياء .

ففيها « الحرية » والشهوة إلى التحرر من كل اتباع وتقليد ؛ وفيها « العلو » على الذات علوا مستمرا لا يقف عند حد ولا يكف عن المحاولة والتجريب ، وفيها « الإصغاء » إلى ما يقوله الوجود ، ومحاولة فهم إشارته وتلميحاته وقراءة شفرته وفك طلاسم المحجوب . وفى إنصات « فازوديفا » الملاح للنهر ومن بعده « سيد هارتا » أروع مثل على فن « الإصغاء » و« الإنصات » ، وفيها الانشغال بالزمان والرغبة فى معرفة كنه

ذلك الهادم للملذات ، المحطِّم للسعادات ، وما يتبعه ذلك من التفكير فى الموت والبحث عن الأبدية والخلود .

ولن أكشف فى هذه العجالة للقارئ عن فلسفة « سيد هارتا » ، وما توصل إليه من حكمة . بل أدعوه ليكتشفها بنفسه فى السياق الحى للرواية ، راجيًا أن يجد فيها ما وجدت وأكثر مما وجدت .

ومع ذلك التحفظ أحب أن أسجل هذا الخاطر وهو أن « سيد هارتا » هو ذلك الإنسان الذى بدأ بحثه بحب الحكمة - كما بدأ معظم الفلاسفة - ولكنه انتهى بحكمة الحب : حب الأشياء جميعا ، لا يفرق بين النهر والحجر ، بين الشمس والقمر ، بين الطير والشجر ، بين الإنسان والزهر ، لأنها جميعا فى عبادة الله سواء : (وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم) « الإسراء » (٤٤)

صدق الله العظيم

« سيد هارتا »
الرجل الذى بلغ هدفه

تقديم بقلم المترجم

هرمان هسه Hermann Hesse كاتب ألمانى معاصر ، يعد من عباقرة الأدب الألمانى الحديث ، ومن شوامخ الروائيين فى كل زمان ومكان .

ولد فى فورتمبرج بألمانيا فى ٢ يوليو ١٨٧٧ من أسرة دينية تغلب عليها التقوى والورع ، فقد كان أبوه مبشرا وقسيسا ، وقد اختار لابنه مصيرا كمصيره ، فأدخله ديرا بروتستانتيا يعرف بدير ماولبرن ليتخرج فيه راعيا ومبشرا كأبيه . وابتداء من دخول هذا الدير كانت حياة هرمان سلسلة من التمردات والثورات .. فلم يلبث الصبى أن ثار على هذا التعليم الدينى الصارم ، على الرغم من اعتراف أساتذته جميعا بأنه تلميذ نموذجى بكل المقاييس ، فلم يمكث فى هذا الدير أكثر من نصف

عام هرب بعدها متمردا على البيت والتعليم الدينى على حد سواء .

ولم يجد أبوه بدا من إلحاقه بالتعليم المدنى « العلمانى » ، إلا أن الفتى المتمرد لم يتكيف أيضا مع هذا النوع من التعليم ، وكان نفوره من التعليم المدرسى بكل أشكاله حادا إلى درجة هدد معها بالانتحار إذا هو أرغم على البقاء فى المدرسة .

وانتهت هذه الفترة من حياته بانقطاعه تماما عن التعليم التقليدى واشتغاله « صبى » ميكانيكى فى إحدى الورش ، ثم بائع كتب فى مدينة توبنجن ، ثم فى مدينة بال حيث استقر فيها منذ سنة ١٨٩٩ .. وقد سجل اشمئزازه وتقززه من قيود الحياة المدرسية التقليدية فى روايته Unterm Rad وعنوانها فى الترجمة الإنجليزية التى ظهرت سنة ١٩٥٨ « تحت العجلة » Beneath the Wheel . وبانقطاعه عن العلم بمعناه الاكاديمى ، عكف على القراءة الحرة وعُرف منذ ذلك الحين بنهمه إلى الاطلاع والدراسة والبحث ، وأتاحت له مهنته كبائع كتب الاتصال بأوساط المثقفين والأدباء ، وبدأ فى مراسلة الصحف الأدبية كاتبا للمقالات والقصص بالقطعة .

وظهرت أولى رواياته « بيتر كامنتسند » Peter Camenzend فى عام ١٩٠٤ فصادفت نجاحا ملحوظا ، وكان موضوعها هو تمرد الأبناء على الآباء ، وفيها يبسط تجربته فى فترة التمرد الأولى

على الأسرة والمدرسة ، واختار أن يكون بطلها كاتبا فاشلا مشتتا لم يستقر على أهدافه بعد . وأردفها برواية (جرترود) Gertrude (١٩١٠) وفيها يواصل التنقيب فى نفسية الفنان وفحص حياته من الداخل والخارج على السواء .

وفى سنة ١٩١١ رحل « هرمان هسه » إلى الهند طلبا للاستجمام ، وهربا من الأزمات التى أخذت تتدافع على أوربا حتى أودت بها إلى الحرب العالمية الأولى . فكانت هذه الرحلة فرصة أتاحت له التفكير - عن بُعد - فى متناقضات العالم الحديث . وكانت ثمرة هذه الرحلة رواية (روسهالده) Rosshalde (١٩١٤) التى يرحل فيها البطل إلى الهند كما رحل « هسه » ، ورواية أخرى ظهرت بعد ذلك بثمانى سنوات هى رواية (سيد هارتا) (١٩٢٢) التى نقدم للقارئ ترجمتها فى هذا الكتاب .

ولما نشبت الحرب العالمية الأولى كان تأثر « هسه » بها تأثرا بالغا ، فقد كان طيلة حياته مستنكرا نافرا معاديا للروح العسكرية الألمانية التى سادت هذه الفترة . وقد حاول أن يفعل ما فعله صديقه الفرنسى الكاتب الإنسانى الكبير « رومان رولان » فيقف بمعزل عن الجماهير ، متأملا هذه الكارثة الكونية التى لم ينج من آثارها المدمرة شارد ولا وارد . فسافر إلى سويسرا المحايدة عدة مرات ، وأخذ يكتب النداء تلو النداء ضد

الروح العسكرية والقومية ، إذ يعتقد أن هذه الروح هى سبب البلاء . كما أقدم على تحرير صحيفة للأسرى والمعتقلين الألمان . ثم قرر الإقامة فى سويسرا نهائيا فى سنة ١٩١٩ وظل مقيما بها حتى اكتسب الجنسية السويسرية فى عام ١٩٢٣ ، وبها قضى بقية حياته حتى وفاته فى مدينة مونتانيولا فى ٩ أغسطس سنة ١٩٦٢ .

وكانت حياته فى فترة الحرب مأساوية إلى أبعد حد ، فبالإضافة إلى صدمة الحرب العنيفة التى اكتوى المثقفون وغير المثقفين بنيرانها ، توالت عليه الصدمات الشخصية ، فأصاب ابنه الأصغر مرض عضال ، وفشلت زيجته الأولى ، وتوفى أبوه ، وكانت نفسه نهبا لصراعات نفسية وذهنية حادة ألجأته فى نهاية الأمر إلى مستشفى للأمراض النفسية والعصبية على مقربة من لوسرن ، وأشرف على علاجه الدكتور ج . ب . لانج J.B.Lang وهو أحد تلاميذ العالم النفسانى السويسرى كارل يونج C. Jung، واستغرق علاجه ٧٢ جلسة فى التحليل النفسى . وفى هذه الفترة كتب « هسه » رائعته التى أطارت شهرته فى أوربا كلها ، وأذاعت صيته فى العالم أجمع وهى رواية «دميان» Demian (١٩١٩) . وفى هذه الراوية تعبير عن قلق تلك الفترة وعذاباتها ، ويظهر فيها تأثير التحليل النفسى عليه ، وأثر تعرفه بيونج ونظريته فى الانطواء والانبساط واللاشعور الجمعى والنزعة

المثالية والرمزية ، وتنقية الطبيعة البشرية .. إلخ .

وتوالت بعد « دميان » سلسلة « السير الروحية » : فجاءت « سيد هارتا » (١٩٢٢) محاولة لحل التناقضات التي تتنازع فكره في جو أسطوري هندوكي ، ثم روايته الشهيرة « ذئب الإستبس » أو البراري (١٩٢٧) Steppenwolf التي تعد من أسد رواياته أصالة ، وفيها يدور الصراع الدرامي بين التسليم البورجوازي والتمرد الفطري الغريزي في الإنسان .

وكان الصراع الأبدي الناشب بين الروح والجسد - وهو صراع تلمسه واضحا في رواياته المبكرة ، ومنها رواية سيد هارتا - من الموضوعات التي شغلت « هسه » دائما ، وعن هذا الصراع تدور روايته « نرجس وفم الذهب » (١٩٣٠) Narziss Und Goldenmund وترجمت بالإنجليزية تحت عنوان « الموت والعاشق » (١٩٣٢) بين بطلين أحدهما زاهد عقلاني مثقف قانع بالعقيدة المقررة ، والآخر فنان حيسي متمرد يسعى وراء خلاصه الخاص .

ويعود « هرمان هسه » إلى الشرق ملتمسا العزاء الروحي والفكري مرة أخرى في كتابه Die Morgenlandfahrt « ١٩٣٢ » ، وترجم إلى الإنجليزية تحت عنوان « رحلة إلى الشرق » وهي قصة حج وأسطورة ، وفيها يظهر تأثير « يونج » واضحا في دراسته للرموز والأساطير في التراث الشرقي القديم ..

وبلغ « هسه » ذورة إنتاجه فى رواية « لعبة الكريات الزجاجية » Das Glassperlenspiel (١٩٤٣) وهى آخر رواياته وأطولها . وقد ظهرت والحرب العالمية الثانية مشتعلة الأوار ، وحاول فيها المؤلف تسجيل وصيته الأخيرة للعالم ، فوضع فيها خلاصة تجاربه وفلسفته التى تعد نسيجا أصيلا تضافرت فى صنعة الفلسفات الشرقية والغربية . وتدور الرواية حول صفوة من الرجال الممتازين عزلوا أنفسهم فى مقاطعة مغلقة بعيدة عن صخب الحياة وضوضائها ، وحاولوا تركيز كل إبداعات الروح الإنسانية ومخترعاتها فى نوع من الجبر الرمزى . وفى هذه الرواية يعود هسه إلى تلك الثنائية التى شغلته طيلة حياته بين الروح والجسد ، ويغامر بطلها « جوزيف » بحثا عن نزعة إنسانية إيجابية . ويضمنها « هسه » بعض قصائده التأملية التى كتبها فى الأسابيع الأخيرة من حياته . وكانت هذه الرواية سببا فى حصوله على جائزة نوبل للآداب فى سنة ١٩٤٦ .

ويعد « هرمان هسه » هو ومعاصره الكاتب الألمانى الكبير « توماس مان » (١٨٧٥ - ١٩٥٥) من رواد المدرسة التأثرية الألمانية ، وهى المدرسة التى تمثل إنعطافة أساسية فى الأدب الألمانى منذ ظهور « جوته » ، وكانت ابتعادا وخروجا على تقاليد المذهب الواقعى الذى يهتم بتفاصيل الحياة اليومية ، وتقديم شريحة من العالم الخارجى للقارئ .

وقد تأثر « هرمان هسه » بالرومانسية الجديدة ، وركز على صراع الإنسان الروحى . وابتداء من روايته الأولى يصور صراع الأفراد فى عالم معاد للحساسية . وكان ارتياده لعالم الشعور عميقا بتأثر مدرسة التحليل النفسى فى عهده على أيدى فرويد وأتباعه (يونج وآدلر) . وكان ينشد نوعا من التوازن بين الروح والشهوات الحسية ، وانتهى به السعى الروحى إلى التساؤل عن الغاية النهائية للمدنية الحديثة .

أما أسلوبه فيجمع بين الوضوح الموضوعى الدقيق ، والشاعرية الصافية الشفافة ، كما يمتاز بالإيجاز الشديد الذى يجعله أشبه بأسلوب الكتاب المقدس فى بساطته وصفائه .

الفصل الأول

ابن البرهمى

فى ظلال البيت ، وفى ضياء الشمس المشرقة على ضفة النهر حيث ترقد الزوارق ، وتحت ظل الغابة الشاحبة وشجرة التين ، نشأ « سيدهارتا » الوسيم ابن البرهمى مع صديقه « جوفيندا » .

وكانت الشمس قد لوّحت مِنكبيه النحيلتين عند شاطىء النهر أثناء استحمامه حين أداء طقوس التطهير المقدسة وتقديم القرابين .. وكانت الظلال تخايل عينيه وهو يلعب فى بستان المانجو ، بينما أخذت أمه فى الغناء ، وأبوه فى إلقاء تعاليمه بين أنداده من العلماء . وكان « سيدهارتا » قد شارك فعلا منذ وقت بعيد فى المحادثات التى تدور بين هؤلاء العلماء ، واشتبك فى جدال مع جوفيندا ، ومارس فن التأمل والتفكير فى صحبته ، وعرف أيضا كيف ينطق كلمة « أوم » Om صامتا ، هذه الكلمة التى هى أم الكلمات ، وكيف يلفظها فى دخيلة نفسه مع دخول الشهيق ،

وعندما ينفث الزفير بجماع روحه ، وقد شعّ جبينه وهجًا من الروح الطاهر . وكان قد عرف أيضا كيف يتعرف على « أتمان » Atman فى أعماق وجوده الذى لا يتطرق إليه الفناء ، والمتناغم مع الكون ..

وكان السرور يغمر قلب أبيه كلما شاهد ابنه الذكى المتعطش إلى المعرفة ، وكان يراه وقد شب عن الطوق عالما عظيما ، وكاهنا ، وأميرا بين البراهمة .

وكان الزهو يملأ صدر أمه كلما رأته ماشيا أو قاعدا أو قائما ، وكان سيد هارتا القوى الوسيم ذو الأطراف المطواعة يحييها فى رشاقة كاملة .

وكان الحب يتحرك فى أفئدة بنات البراهمة الغريرات كلما عبر سيد هارتا شوارع القرية بجبينه الأشم ، وبعينيه الملكيتين ، وقوامه السمهرى .

وكان صديقه « جوفينيدا » ، ابن البرهمى ، يحبه كما لا يحب أحدا آخر : كان يحب عينىْ سيدهارتا ، وصوته الصافى .. كان يحب مشيته والرشاقة الكاملة التى تتسم بها حركاته .. كان يحب كل ما يفعله سيد هارتا وكل ما يقوله ، ويحب فوق هذا كله ، عقله ، وأفكاره المتقده المرهفة ، وإرادته القوية ، وشعوره بسمو رسالته . وكان جوفيندا يعلم أن صديقه لن يكون برهميا عاديا ، أو كاهنا كسولا يقدم القرابين ، أو تاجرا بخيلا للأقوال

السحرية ، أو واعظا مغرورا لا وزن له ، أو راهبا ماكرا شريرا ، كلا ، ولن يكون مجرد شاة غبية طيبة بين قطيع كبير .. كلا ولن يكون جوفيندا نفسه ولا يريد أن يكون شيئا من هذا كله ، أو مجرد برهمى مثل عشرة آلاف برهمى آخر من هذا الطراز ..

إنه يريد أن يتبع سيد هارتا المحبوب الرائع . فإذا شاءت الأقدار أن يصير إلها ، وأن يدخل فى حضن النور الشامل ، فإن جوفيندا يريد أن يتبعه بوصفه صديقا ورفيقا وخادما وحامل رمحه ، وظلا من ظلاله ..

وعلى هذا النحو ، كان الجميع يحبون « سيد هارتا » . وكان هذا الحب مبعث سروره . فكان يسعده أن يكون مصدر سعادة للآخرين ..

بيد أن «سيد هارتا » نفسه لم يكن سعيدا .. فعندما يتجول فى الممرات الوردية التى تقطع بستان التين ، ويجلس غارقا فى تأملاته تحت ظلال الأيكة المائلة إلى الزرقة ، أو يغسل أطرافه فى حمام التكفير اليومى ، أو يقدم القرابين فى أعماق غابة المانجو الظليلة بحركاته تلك التى تتسم بالرشاقة الكاملة ، والتى يعشقها الجميع ويسر لها الناس جميعا ..عندما يفعل هذا كله ، كان خاويا من السعادة .كانت الأحلام والخواطر القلقة تتدفق عليه من النهر ، أو تتساقط عليه من نجوم الليل المتلألئة ، أو تغمره من أشعة

الشمس الذائبة ، وتأتى اليه الأحلام وينتابه القلق الذى لايدع للروح مستقرا ، منبعثا من دخان القرابين ، صادرا عن أشعار الريجفيدا Rig-Veda ، منسابًا من تعاليم البراهمة الأقدمين .

بدأ سيد هارتا يشعر ببذور السخط تنبت داخل نفسه ، وأخذ يشعر أن حب أبيه وأمه ، وكذلك حب صديقه « جوفيندا » ، لا يجعله دائما سعيدا . ولا يمنحه الطمأنينة ، ولا يرضيه ، ولا يكفيه . وجعل يرتاب فى أن والده المبجل ومعلميه الآخرين من البراهمه الحكماء قد نقلوا إليه لب حكمتهم وخير ما فيها ، وأنهم قد صبوا جماع معرفتهم فى وعائه المنتظر ، غير أن الوعاء لم يمتلىء ، وعقله لم يقنع ، وروحه لم تعرف الأمن ، وقلبه لم ينعم بالاستقرار .. وكانت شعائر التطهير شيئا طيبا ، ولكنها لم تكن أكثر من ماء .. فهى لا تمحو الخطايا تماما ، ولا تفرِّج عن القلب المكروب .. وكانت القرابين والضراعات التى ترفع إلى الآلهة رائعة .. ولكن هل كانت كل شىء ؟ هل تهب القرابين السعادة ؟ وماذا عن الآلهة ؟ هل كان « براجاباتى » Prajapati هو الذى خلق العالم حقا ؟ ألم يكن « أتمان » – وهو وحده – الذى خلقه ؟ أليست الآلهة أشكالا مخلوقة مثلى ومثلك أشكالا فانية ، عابرة ؟ أمن الخير والحق إذن ، أو من الصواب والحكمة تقديم القرابين للآلهة ؟ لمن إذن يكون من الواجب على المرء أن يقدم القرابين ؟ ولمن يسبِّح إن لم يكن له هو : « أتمان » الواحد

الأوحد ؟ وأين يمكن أن يوجد أتمان ؟ أين يسكن ؟ ، وأين ينبض قلبه الأبدى إن لم يكن داخل « الذات » فى الأعماق ، فى الأبدى الذى يحمله كل إنسان فى سريرة نفسه ؟ ولكن أين هذه « الذات » ... هذه السريرة ؟ إنها ليست اللحم والعظم ، وليست الفكر أو الشعور .. هذا ما يعلمنا الحكماء .. أين هى إذن ؟ الاسراع نحو الذات ، صوب أتمان . هل هناك سبيل آخر أحق بالسعى ؟ لم يبين الطريق أحد .. ولم يعرفه أحد – لم يعرفه أبوه أو المعلمون أو الحكماء ، أو الأغانى المقدسة . البراهمة وكتبهم المقدسة يعلّمون كل شئ .. كل شئ لقد تناولوا كل شئ – خَلْق العالم ، أصل الكلام ، الطعام ، الشهيق ، الزفير ، ترتيب الحواس ، أفعال الآلهة . إنهم يعرفون عددا هائلا من الأشياء .. ولكن ما قيمة معرفة هذه الأشياء جميعا إن لم يعرفوا الشئ الوحيد المهم ، الشئ الأوحد المهم ؟

كثيرة هى القصائد التى تضمها الكتب المقدسة ، ولا سيما أوبانيشاد ساماڤيدا Upanishads Samavida التى تحدثت عن هذا الشئ المستتر . وقد كُتِب فيها « إن روحك هى العالم بأسره » . وتقول إن الإنسان عندما ينام ينفذ إلى أعماق سريرته ويستقر فى « أتمان » . وهى قصائد حافلة بحكمة رائعة ، ومعرفة الحكماء كلها تُرْوى هنا فى لغة غنائية صافية كعسل النحل .. كلا ، إن هذا القدر الهائل من المعرفة الذى جمعته وحفظته أجيال متعاقبة

من البراهمة الحكماء ، لا يمكن أن نتجاهلها فى يسر . ولكن أين هم البراهمة والكهنة والحكماء الذين أفلحوا ، لا فى الحصول على هذه المعرفة العميقة ، بل فى تجربتها ؟ أين هم السالكون الذين بلغوا « أتمان » فى منامهم ، ثم استطاعوا الاحتفاظ به فى الوعى ، فى الحياة ، فى كل مجال ، فى الأقوال والأفعال ؟ وكان سيد هارتا يعرف كثيرا من البراهمة الأجلاء ، ويعرف أباه فوقهم جميعا - كانوا جميعا مقدسين ، متبحرين فى العلم ، جديرين بأسمى آيات التقدير ، وكان أبوه خليقا بالإعجاب ، وسلوكه يكتسى بالهدوء والنبل ، وهو يحيا حياة طيبة ، وعباراته تشع بالحكمة ، والأفكار الجميلة النبيلة تستقر فى رأسه - ولكن ، حتى هذا الذى يعرف كل هذه المعرفة ، أيعيش فى سعادة ؟ أويعرف السلام ؟ أليس هو أيضا باحثا لا يشبع ؟ ألا يذهب دائما وأبدا إلى الينابيع المقدسة يحدوه ظمأ لا يرتوى ، وإلى القرابين ، والكتب ، ومحاضرات البراهمة ! ولماذا ينبغى عليه ، وهو المنزه عن اللوم ، أن يزيل خطاياه ، ويحاول أن يطهر نفسه من جديد كل يوم ، أيكون أتمان غير موجود فى داخله ؟ أيكون النبع غير موجود داخل قلبه ؟ على المرء أن يجد المنبع داخل « ذاته » ، ولابد للمرء من أن يمتلكه . وما عدا ذلك فهو بحث .. ضلال وخطأ .

كانت هذه أفكار سيد هارتا ، وكان هذا تعطشه وحزنه .

وكان كثيرا ما يردد بينه وبين نفسه العبارات الواردة فى كتاب من كتب تشاندوجيا – أوبانيشاد Chandogia-Upanishad .

كانت هذه العبارات تقول : إن اسم براهما – فى الحقيقة – هو ساتيام ، وبالطبع فإن من يعرفه يدخل العالم العلوى كل يوم .

وكان هذا العالم العلوى يبدو قريبا فى كثير من الأحيان ، ولكنه لم يصل إليه فقط ، ولم يطفئ ظمأه النهائى أبدا .. ولم يكن بين الحكماء الذين عرفهم والذين استمتع بتعاليمهم ، من بلغ هذا العالم العلوى تماما ، أو أطفأ ذلك الظمأ الأبدى تمام الإطفاء .

قال سيدهارتا لصديقه : « « جوفيندا .. تعال معى إلى شجرة البنيانا (التين الهندى) ، لنمارس التأمل .. »

وذهبا إلى شجرة البنيانا ، وافترشا الأرض وبينهما مسافة عشرين خطوة . وما أن جلس سيد هارتا متأهبا لنطق اسم الاله ، حتى أنشد هذه الأبيات بصوت رقيق :

« أوم هو القوس ، والسهم هو الروح ،
وبراهما هو هدف السهم
الذى يسدده المرء دون إجفال » .

وعندما انقضى الوقت المعتاد لممارسة التأمل ، نهض جوفيندا . كان المساء قد حل ، وحان وقت أداء التطهرات المسائية . فنادى على سيد هارتا باسمه ، فلم يرد عليه . كان

سيدهارتا مستغرقا فى تأملاته وقد تركزت عيناه كأنهما مسددتان على هدف بعيد ، وظهر طرف لسانه قليلا من بين أسنانه ، وبدا كأنه يتنفس . وهكذا جلس غارقا فى تأمله يفكر فى « أوم » ، وروحه كالسهم مسددة صوب « براهما » .

وذات يوم عبرت قرية سيدهارتا جماعة من السامانا Samanas مؤلفة من ثلاثة من الزهاد المتجولين يعلوهم النحول والإرهاق .. وكانت أعمارهم وسطا بين الشيخوخة والشباب ، وعلى أكتافهم الدامية طبقة من التراب ، كانوا شبه عراة وقد أحرقتهم الشمس ، متوحدين ، غرباء ، متوجسين .. ثعالب عجافا فى عالم البشر . حولهم يحوم جو من العاطفة الهامدة ، ومن الخدمة الماحقة، ومن إنكار للذات لا يعرف الرحمة ..

وفى المساء بعد انتهاء ساعة التأمل قال سيد هارتا لجوفيندا : « فى صباح غد سينضم سيد هارتا للسامانا ياصديقى . إنه سوف يصبح سامانيا » . وامتقع وجه « جوفيندا » وهو يسمع هذه الكلمات ، وطالع التصميم فى وجه صديقه الذى ارتسم العزم على ملامحه ، وكسته الصرامة كالسهم المنطلق من القوس . وأدرك « جوفيندا » من اللمحة الأولى التى رمق بها وجه صديقه أن البداية قد حلت . إن « سيد هارتا » يشق الآن طريقه الخاص ، وأن مصيره قد شرع ينشر طياته ، مع مصيره هو أيضا . وغدا « جوفيندا » شاحبا كقشرة موز جافة .

وهتف قائلا : « أى سيد هارتا ، وهل يسمح أبوك بذلك ؟ .. » ونظر إليه سيد هارتا كشخص استيقظ لتوه .. وفى سرعة البرق ، قرأ ما يجول فى نفس جوفيندا .. قرأ الجزع والتسليم .

فأجاب فى رقة : « لا داعى للإفاضة فى الكلام ، غداً عند مطلع الفجر ، سأبدأ حياة السامانى . فلنضرب صفحا عن مناقشة هذا الموضوع مرة أخرى . »

ودخل سيد هارتا الحجرة التى يجلس فيها أبوه على حشية من الليف ..ووقف وراء أبيه ، وظل واقفا فى مكانه حتى أحس أبوه بوجوده . فسأله البرهمى :

« أهذا أنت ياسيدهارتا ؟ أفصح عما يدور فى ذهنك » .

فقال سيد هارتا « بعد إذنك ياأبى جئت لأخبرك إننى سأغادر منزلكم غدا ، وسألحق بالزهاد .. أريد أن أكون سامانيا ، وأنا على ثقة فى أن أبى لن يعارض » . والتزم البرهمى الصمت طويلا حتى عبرت النجوم وغابت عن النافذة الصغيرة ، وغيرت تشكيلها قبل أن ينقطع الصمت أخيرا من الحجرة . وكان ابنه يقف ساكنا لا يتحرك وقد تشابكت ذراعاه ، وكذلك جلس الأب صامتا لاحراك به فوق الحشية ، والنجوم تعبر صفحة السماء . وحينئذ قال الأب « لا يليق بالبراهمة أن يتفوهوا بألفاظ عنيفة غاضبة ، بيد أن ثمة استياء فى قلبى .. فلا أحب

أن أسمع منك هذا الطلب مرة أخرى » . ونهض البرهمى متئدا . وظل سيدهارتا صامتا شابك الذراعين .

فسأله أبوه : لماذا تنتظر ؟

فأجابه سيد هارتا : « أنت تعرف السبب »

وغادر أبوه الحجرة حانقا . ورقد على سريره .

فلما انقضت ساعة . دون أن يستطيع النوم ، نهض البرهمى ، وأخذ يتجول هنا وهناك ، ثم غادر المنزل . ونظر عبر نافذة الحجرة الضيقة ، فأبصر سيد هارتا واقفا هناك وقد شبك ذراعيه ، بلا حراك . وكان يستطيع أن يرى رداءه الشاحب يومض واهنا .. وهنا اضطرب قلب الأب ، فعاد إلى فراشه .

فلما انقضت ساعة أخرى دون أن يستطيع البرهمى النوم ، نهض مرة أخرى وأخذ يذرع البيت هنا وهناك ، ولم يلبث أن بارحه ، فأبصر القمر بازغا ، فأرسل بصره خلال النافذة . كان سيدهارتا منتصبا هناك دون حراك ، شابكا ذراعيه . وسطع القمر على ساقيه العاريتين . وعاد الأب إلى فراشه مضطربا واجف القلب ..

وعاد ثانية بعد ساعة . ثم عاد مرة أخرى بعد ساعتين ، ونظر خلال النافذة فرأى سيد هارتا واقفا فى نور القمر ، وفى ضوء النجوم ، وفى الظلام . ثم أتى صامتا مرة أخرى ، وساعة أثر أخرى ، ونظر فى الحجزة ورآه واقفا بلا حراك . فامتلأ قلبه

بالغضب ، والقلق ، والخوف ، والأسى ..

وفى الهزيع الأخير من الليل ، قبل مطلع الفجر ، رجع مرة أخرى ، ودخل الحجرة ، فأبصر الشاب واقفا هناك ، فبدا طويلا ، وغريبا عنه .

قال .. « سيد هارتا .. لماذا تنتظر ؟ »

– « أنت تعرف السبب » ..

– « هل ستظل واقفا تنظر حتى يحل النهار ، والظهر ، والمساء ؟ »

– « سأقف وأنتظر »

– « سينال منك التعب ، أى سيد هارتا »

– « سينال منى التعب .. »

– « سوف يغشاك النوم ، أى سيد هارتا »

– « لن يغشانى النوم . »

– « ستموت .. أى سيد هارتا .. »

– « سأموت »

– « وهل تؤثر الموت على أن تطيع أباك ؟ »

– « لقد أطاع سيد هارتا دائما أباه .. »

– « إذن فسوف تعدل عن مشروعك ؟ »

– « سيفعل سيد هارتا ما أمره به أبوه .. »

وتسلل أول شعاع من الضوء إلى الحجرة . ورأى البرهمى أن

ركبتى سيد هارتا ترتعدان رعدة خفيفة ، وإن لم يكن هناك أى أثر للارتعاد على وجه سيدهارتا . وكانت عيناه تنظران بعيدا ، وعندئذ أدرك الأب أن سيد هارتا لا يستطيع أن يمكث معه فى المنزل - وأنه قد فارقه فعلا .

ولمس الأب كتف سيد هارتا وقال : « سوف ترحل إلى الغابة لتصبح سامانيا . فإن وجدت السعادة فى الغابة ، فعد إلىّ وعلمنى إياها . وإن انقشعت أوهامك ، فارجع ، وسنقدم القرابين للآلهة معًا مرة أخرى . والآن اذهب فقبِّل أمك ، وأخبرها أين ستذهب . أما أنا ، فقد حان وقت ذهابى إلى النهر لأقوم بالاغتسال الأوّل .. »

وأرخى يده متخليا عن كتف ابنه . وخرج . وترنح سيد هارتا حينما هم بالسير ، ولكنه جمع نفسه ، وانحنى لوالده ، ثم ذهب إلى أمه ليصنع ما أُمر به .

وما إن بارح القرية التى كانت نائمة عند مطلع الفجر ، بساقيه المخدرتين ، حتى برز شبح محنى الظهر من الكوخ الأخير ، وإنضم إلى المهاجر .. وكان هذا الشبح هو « جوفيندا » .

قال سيد هارتا : « ها أنت قد أتيت .. » ثم ابتسم .. فقال جوفيندا : « نعم .. لقد أتيت » ..

الفصل الثانى

مع السامانا
« النساك »

وفى مساء ذلك اليوم لحقوا بالسامانا ، وطلبوا مرافقتهم والولاء لهم . فاستجابوا لطلبهم ، وأعطى « سيد هارتا » ثيابه لبرهمى مسكين صادفه فى طريقه ، ولم يحتفظ إلا بمئزره وبعباءة غير مخيطة بلون الأرض ، ولم يكن يأكل غير مرة واحدة فى اليوم ، ولا يطهو الطعام إطلاقا . وكان يصوم أربعة عشر يوما . ثم صام ثمانية وعشرين يوما . فاختفى اللحم من ساقيه ووجنتيه ، وانعكست أحلام غريبة فى عينيه اللتين ازدادتا اتساعا . وطالت الأظفار فى أنامله النحيلة ، وظهرت لحية كثة فوق ذقنه . وكانت نظراته جليدية إذا التقى بالنساء ، وتلتوى شفتاه اشمئزازا إذا مر ببلدة يرتدى أهلها فاخر الثياب ؛ وكان يرى رجال الأعمال يتاجرون ، والأمراء يخرجون للصيد ، والنائحين يبكون موتاهم ، والبغايا يعرضن أنفسهن ، والأطباء

يعالجون المرضى ، والكهنة يقررون تضحية يومهم فى بذر الحب ، والعشاق يتبادلون الحب ، والأمهات يعللن أطفالهن – ولم يكن هذا كله يستحق لمحة عابرة ، كل شىء يكذب ، مستنقع من الأكاذيب .. إنها كلها أوهام صنعتها الحواس والسعادة والجمال .. كل شىء مآله الفناء ، والعالم مذاقه مر ، والحياة نسيجها عذاب ..

ولم يكن لسيذ هارتا غير هدف واحد : أن يصبح خاليا .. خاليا من العطش والشهوة والأحلام والمتعة والآلام – أن يقضى بالموت على « الذات » .. ألا يعود « ذاتا » ، وأن يجرب السلام الذى ينعم به قلبٌ خاوى الوفاض ، وأن يجرِّبَ الفكرَ الخالص ، هذا هو هدفه ، فعندما ينتصر على « الذات » كلها فتموت ، وعندما تصمت الشهوات والرغبات جميعا ، حينئذ تستيقظ البقية الأخيرة ، أعماق « الوجود » الذى لم يعد « ذاتا » – السرُ الأعظم !

وكان سيد هارتا يقف ساكنا تحت أشعة الشمس الناهشة ، يفيض ألمًا وظمأً ، ولا يفتأ واقفا حتى يبارحه الشعور بالألم والظمأ . وصامتا يقف تحت المطر ، ينسكب الماء من شعره على كتفيه المتجمدتين ، وعلى فخذيه وساقيه المتجمدتين . ويظل الزاهد واقفا حتى تنقطع كتفاه وساقاه عن التجمد ، حتى تصمت وحتى تسكن . وصامتا يرقد بين الأشواك . فإذا سالت الدماء

من جلده الموخوز ، وتكونت القروح ، ظل سيد هارتا متصلبا جامدا حتى تتوقف الدماء عن النزيف ، وحتى ينقطع لذع الألم ، ووخز الأشواك .

وكان سيد هارتا يجلس مستقيما ، وتعلم توفير أنفاسه ، حتى تمكّن من الاكتفاء بأقل قدر منها ، بل الإمساك عن التنفس . وتعلم أثناء الشهيق أن يهدئ ضربات قلبه ، وأن يقلل من نبضاته ، حتى لم يبق منها إلا القليل ، بل كاد لا يتبقى منها شيء .

وخضوعا لتعاليم أكبر السامانا سنًّا ، مارس سيد هارتا إنكار الذات والتأمل وفقا لقواعد السامانا . وذات مرة حلّق طائر البلشون « مالك الحزين » فوق غابة البامبو . فوضعه سيد هارتا فى أعماق روحه ، وهكذا حلق فوق الغابة والجبال ، وأصبح بلشونا يأكل الأسماك ، ويعانى من الجوع الذى يعانيه البلشون ، ويستخدم اللغة التى يستخدمها البلشون ، وأخيرا مات ميتة البلشون . وعلى الشاطئ الرملى رقد ثعلب ميت ، فتسللت روح سيد هارتا إلى الجثة ، فصار ميتا ، راقدا على الشاطئ ، منتفخا نتنا ، عفنا ، انتزعت أطرافه الضباع ، ونهشته جوارح الطير ، حتى غدا هيكلا ، ثم ترابا اختلط بالرياح . وعادت روح سيد هارتا ، وماتت ، وتآكلت ، ورجعت إلى التراب ، وعانت السيرة المضطربة لدورة الحياة . وانتظر يدفعه

ظمأ جديد كصياد إزاء جحر حيث تنتهى دورة الحياة ، وحيث توجد نهاية للأسباب ، حيث يبدأ الأبد الذى يخلو من الآلام .. لقد أباد حواسه ، وقتل ذاكرته ، وأفلت من « ذاته » بآلاف من الصور المختلفة .. تشكل فى صورة حيوان ، وجيفة ، وحجر ، وخشب وماء ، وكان يعود إلى الحياة فى كل مرة . والشمس تسطع ، والقمر يطلع ، وها هو « ذات » مرة أخرى ، يتأرجح فى دورة الحياة ، ويشعر بالظمأ ، ويتغلب عليه ، ويشعر بظمأ جديد ..

وتعلم سيد هارتا الكثير من السامانا ، تعلم أساليب كثيرة لفقدان « الذات » . وسافر فى طريق إنكار الذات عبر الألم ، وعبر التعبير الإدارى ، والتغلب على الألم ، عبْر الجوع والعطش والتعب .. وسافر فى طريق إنكار الذات عبر التأمل ، وعبر إخلاء الذهن من الصور جميعا . عبر هذه وغيرها من السبل تعلم السفر . وفقد ذاته آلاف المرات وظل أياما بأكملها مقيما فى العدم .. ولكن على الرغم من أن تلك السبل قادته بعيدا عن « الذات » ، فقد كانت تعود به فى النهاية إليها دائما . ومع أن « سيد هارتا » أفلت من « الذات » آلاف المرات ، واستقر فى العدم ، وأقام فى الحيوان والصخر ، إلا أن العودة كانت محتومة . كانت اللحظة التى يجد فيها نفسه فى ضوء الشمس أو نور القمر ، فى الظل أو المطر ، كانت هذه اللحظة حتمًا مقضيا ،

فيعود « ذاتا » ويعود « سيد هارتا » ، ويعود يشعر بالعذاب المصاحب لدورة الحياة الشاقة ..

وإلى جانبه عاش « جوفيندا » كظله ، يسافر معه فى الطريق نفسه ، ويقوم بالمحاولات نفسها ، وقلما كانا يتحادثان إلا فى ضرورات العبادة والطقوس .

وكانا يذهبان أحيانا معا إلى القرى يستجديان الطعام لهما ولمعلميهما . وفى إحدى رحلات الاستجداء هذه سأل سيد هارتا : « هل تعتقد ياجوفيندا أننا تقدمنا قليلا ؟ هل وصلنا إلى هدفنا ؟ »

فأجاب جوفيندا : « لقد تعلمنا ، ومازلنا نتعلم . وستصبح سامانيا عظيما ياسيدهارتا . ولقد تعلمت كل تمرين بسرعة . وشيوخ السامانا يثنون عليك فى كثير من الأحيان . وسيأتى يوم تصبح فيه رجلا مقدسا ياسيد هارتا » .

قال سيد هارتا « لا يبدو الأمر لى على هذا النحو ياصديقى ، فإن ما تعلمته من السامانا الآن ، كان يمكن أن أتعلمه أسرع وأيسر فى أى حانة فى حى البغايا بين الحمالين ولاعبى النرد . »

قال جوفيندا : « لاشك أن سيد هارتا يمزح ، فكيف يمكن أن تتعلم التأمل وحبس النفس وعدم الإحساس بالجوع والألم مع أولئك الأوغاد ؟ » فأجاب سيد هارتا فى رفق وكأنما يناجى نفسه . « ما التأمل ؟ وما التخلى عن الجسد ؟ وما الصوم ؟

وما حبس النفس ؟ إنه هروب من « الذات » ، إنه فرار مؤقت من عذاب « الذات ، إنه مسكن مؤقت للألم وحماقة الحياة . إن سائق الثيران يلجأ إلى هذا الهروب نفسه ، ويتناول هذ الجرعة المؤقتة نفسها عندما يشرب فى الحانة بضع طاسات من نبيذ الأرز أو لبن جوز الهند .. عندئذ يفقد الشعور بذاته ، ولا يشعر بآلام الحياة . وفى هذه الحالة يجرب الهروب المؤقت . فإذا ارتمى نائما فوق طاسة نبيذ الأرز ، وجد ما يجده سيد هارتا وجوفيندا عندما يهربان من جسديهما بالمران الطويل ليستقرا فى « اللاذات » ».

قال جوفيندا : « تقول هذا يا صديقى ، ومع ذلك فأنت تعلم أن سيد هارتا ليس سائقا للثيران ، كما أن السامانى ليس سكيرا . إن مدمن الشراب لا يجد المهرب حقا ، وإنما يجد راحة قصيرة وسكنا ، ولكنه يعود من الوهم ليجد كل شيء كما كان من قبل ، فهو لم يصبح أوفر حكمة أو أغزر معرفة ، ولم يصعد إلى مكان أعلى . »

فأجاب سيد هارتا بابتسامة على وجهه : « لست أدرى . فلم أكن سكيرا قط . يبدو أننى أنا الذى ادعى سيد هارتا .. لا أجد إلا راحة قصيرة فى تمارينى وتأملاتى ، وأنا بعيد عن الحكمة ، وعن الخلاص بُعْد طفل فى رحم أمه — هذا هو ما أعرفه ، ياجوفيندا . »

وفى مناسبة أخرى ، عندما ترك سيد هارتا الغابة بصحبة

جوفيندا لاستجداء الطعام لإخوانها ومعلميها ، شرع سيد هارتا في الحديث وقال : « حسن ياجوفيندا ، أترانا على الطريق الصحيح ؟ وهل تكتسب المعرفة ؟ وهل نقترب من الخلاص ، أم ترانا ندور في حلقات – نحن الذين نظن إننا نهرب من الدورة ؟؟ »

فقال جوفيندا : « لقد تعلمنا الكثير ياسيد هارتا .. ومازالت هناك أشياء كثيرة لنتعلمها .. ونحن لا نسير في دوائر ، بل نصعد إلى أعلى . الطريق حلزوني ، وقد تسلقنا فعلا كثيرا من الدرجات . »

فأجاب سيد هارتا : « ما عمر أكبر ساماني هنا ، معلمنا المبجل ؟ » .

وقال جوفيندا : « أعتقد أن أكبرهم بلغ حوالى ستين عاما .. »

فقال سيد هارتا « إنه في الستين من عمره ، ومع ذلك لم يبلغ النرڤانا . وسيصل إلى السبعين والثمانين من عمره وأنت وأنا ، سنبلغ من العمر ما بلغه ، وسنصوم ونتأمل . ولكننا لن نبلغ النرڤانا سواء هو أو نحن .

« جوفيندا . إني أعتقد أن أحدا من السامانا لن يصل إلى النرفانا . إننا نلتمس ألوانا من العزاء ونتعلم ضروبا من الحيل نخدع بها أنفسنا ، أما الشيء الجوهرى – الطريق – فإننا

لا نعثر عليه ... »

قال جوفيندا : « لاتفه بمثل هذه العبارات المروعة ياسيد هارتا : فكيف يمكن أن يكون بين هؤلاء العلماء جميعا ، وهؤلاء البراهمة والزهاد والسامانا الأجلاء ، وبين كل أولئك الباحثين ، والذين كرسوا أنفسهم للحياة الباطنة .. بين كل هؤلاء الأشخاص المقدسين .. كيف لا يوجد بين هؤلاء جميعا شخص واحد لا يجد الطريق الصحيح ؟ »

ومهما يكن من أمر ، فقد أجاب سيد هارتا بصوت يحتوي على الحزن بقدر ما يحتوى على التهكم .. بصوت هادئ ، حزين إلى حد ما ، مازح إلى حد ما :

« قريبا سيترك صديقك – أى جوفيندا – طريق السامانا التى سافر فيها معك طويلا .. إننى أعانى من الظمأ ياجوفيندا . وفى هذا الطريق السامانى الطويل ، لم يخف ظمئى . لقد تعطشت دائما إلى المعرفة . وكنت مليئا بالأسئلة دائما وأبدا . وطفقت أسأل البراهمة عاما بعد عام ، ثم أخذت أسأل كتب الفيدا المقدسة عاما إثر عام . وربما كان من الخير أيضا ، ومن الذكاء والقداسة أيضا لو أننى سألت – ياجوفيندا – الخراتيت أو القرود . لقد أنفقت وقتا طويلا ولم أنته بعد – أى جوفيندا – لكى أتعلم هذا : إن الإنسان لا يستطيع أن يتعلم شيئا . ففى ماهية الأشياء على ماأعتقد – يوجد شيء ما

لا تستطيع أن نسميه تعلما . هناك ياصديقى معرفة واحدة - توجد فى كل مكان - إنها إنسان ، إنها فى وفيك وفى كل مخلوق . وقد بدأت أعتقد أنه لا يوجد عدو لهذه المعرفة أسوأ من رجل المعرفة . ومن المتعلم . »

وهناك وقف جوفيندا ساكنا فى الطريق ثم رفع راحتيه قائلا : « سيد هارتا لا تغم صديقه بمثل هذا الكلام .. أجل إن كلماتك تزعجنى .. تفكر أى معنى يمكن أن يكون لصلواتنا المقدسة ، ولتوقير البراهمة ، ولقداسة السامانا إذا لم يكن هناك - كما تقول - أى تعلم ؟ ماذا يمكن أن تصير إليه الأسياء جميعا ، وماذا سيكون مقدسا على الأرض ، وأى شىء سيكون ثمينا جديرا بالعبادة ؟ »

وغمغم جوفيندا بيتا من الشعر فى نفسه ، بيتا من أحد الأوبانيشاد : « إن من تغوص روحه الطاهرة المتأملة فى أتمان ، يذوق نعيما لا تعبر عنه الكلمات »

وأخلد سيد هارتا إلى الصمت .. كان يتأمل الأقوال التى نطق بها جوفيندا ، وقف صامتا مطرق الرأس .. أجل ماذا سيبقى من كل ما نعتقد إنه مقدس بالنسبة إلينا ؟ ماذا سيبقى ؟ بم سنحتفظ ؟ وهز رأسه . .

وكان الشابان قد سمعا ذات مرة ، وهما يعيشان مع السامانا بعد حوالى ثلاثة أعوام ويشاطرانهم طقوسهم ، سمعا من مصادر

كثيرة إشاعة ، وتقريرا . لقد ظهر شخص يدعى « جوتاما » المستنير بوذا .. انتصر فى نفسه على أحزان العالم ، وأوقف عجلة العودة إلى الميلاد . وكان يجوب البلاد واعظا يحوطه تلاميذه ، لا يملك مالا ولا دارا ولا زوجا . يرتدى عباءة الزاهد الصفراء ولكنه يملك جبينا أشم .. فهو رجل مقدس . ينحنى له البراهمة والأمراء ويصيرون من تلاميذه .

وهذا التقرير ، وهذه الإشاعة ، وهذه القصة تداولتها الأسماع ، وانتشرت هنا وهناك . وكان البراهمة يتحدثون عنها فى المدينة ، والسامانا يحكونها فى الغابة . وبلغ اسم « جوتاما » المستنير أسماع الشابين مشفوعا بالمدح أو القدح ، بالثناء أو الهجاء ..

وكما يجتاح البلاد وباء ، وتنتشر الشائعات بأن هناك رجلا .. رجلا حكيما ، رجلا عالما ، تكفى كلماته وأنفاسه لشفاء المكلومين ، وكما تنتقل القصة من أقصى البلاد إلى أدناه فيتحدث عنها كل إنسان ، فكذلك يصدقها كثيرون . ويرتاب فيها كثيرون . ومهما يكن من أمر ، فقد مضى كثيرون فى سبيلهم على الفور بحثا عن الرجل الحكيم والمحسن الكريم . وعلى هذا النحو طارت تلك الشائعة ، هذه القصة السعيدة عن جوتاما المستنير « بوذا » ، الرجل الحكيم المنحدر من سلالة ساكيا فى أنحاء البلاد جميعا . وكان المؤمنون به يقولون إنه على معرفة

واسعة ، وإنه يتذكر حيواته السابقة ، وإنه بلغ النرڤانا ، ومن ثم ، لم يعد إلى الدورة ، وإنه لن يخوض مرة أخرى فى تيار الصور العكر . وقد رويت عنه أمور كثيرة عجيبة تجل عن التصديق ، فقد أتى بالأعاجيب ، وهزم الشيطان ، وكلم الآلهة . أما أعداؤه والمتشككون فيه ، فيقولون إن هذا الجوتاما خدعة لا أساس لها من الصحة ، وإنه يقضى أيامه فى بذخ مسرف ، ويزدرى القرابين ، ولا شأن له بالعلم ، ولا يعرف العبادات أو إماتة الجسد .

وكانت الشائعات المنتشرة حول بوذا تبدو جذابة وكأنما يسرى شيء من السحر فى هذا القصص .. فقد كان العالم عليلا ، والحياة عسرة ، وهنا يلوح أمل جديد ، ورسالة جديدة مريحة ، حنون ، حافلة بالوعود العذبة . وفى كل مكان ، كانت تنتشر الشائعات حول بوذا ، والشبان فى كل أرجاء الهند يستمعون ويشعرون بالحنين والأمل .

وبين أبناء البراهمة فى المدن والقرى ، كانوا يرحبون بكل مسافر وغريب مادام يحمل أخبارا عنه .. عن المستنير ساكياموني ..

وتناهت الشائعات إلى مسامع السامانا فى الغابة ، وكذلك بلغت سيد هارتا وجوفيندا رويدا رويدا ، وكل نبأ صغير حافل بالأمل ، حافل بالشك . وقلما كانا يتحدثان عنه ، فقد كان

السامانى الأكبر عدوا لهذا الشائعة . فقد سمع أن هذا البوذا المزعوم كان زاهدا فيما سبق ، وأنه عاش فى الغابات ، ثم عاد إلى حياة الترف ، وإلى ملذات الدنيا ، ولهذا لم يكن يؤيد هذا الجوتاما ..

وذات مرة قال جوفيندا لصديقه :

« سيد هارتا ، لقد كنت اليوم فى القرية ، ودعانى أحد البراهمة لدخول بيته ، وفى البيت كان هناك ابن أحد البراهمة قادما من ماجاذا . وقد شاهد بوذا بعينيه ، واستمع إليه وهو يعظ . والحق إننى ملئت شوقا وفكرت : حبذا لو عشت أنا وسيد هارتا لنرى ذلك اليوم الذى نستطيع فيه الاستماع إلى التعاليم من شفتى « الكامل » . صديقى ألن نذهب نحن أيضا إلى هناك لنستمع إلى التعاليم من شفتى بوذا ؟ »

فقال سيد هارتا : « ظننت دائما أن جوفيندا سيبقى مع السامانا .. وكنت أعتقد دائما أن هدفه هو أن يبلغ ستين أو سبعين سنة من عمره وهو يمارس الفنون والتمارين التى يلقنها السامانا . ولكن ما أقل معرفتى بجوفيندا .. ما أقل معرفتى بما يدور فى قلبه ! والآن تريد ياصديقى أن تسلك طريقا جديدا .. وأن تمضى فيه لتستمع إلى تعاليم بوذا » ..

قال جوفيندا .. « إنه ليسرك أن تسخر منى . لا بأس عليك إن فعلت ياسيد هارتا . ألا تشعر أنت أيضا بشوق ، برغبة فى

الاستماع إلى تلك التعاليم ؟ ألم تقل لى ذات مرة إننى لن أمضى فى طريق السامانا أبعد من ذلك ؟ »

وهنا أطلق سيد هارتا ضحكة امتزجت فيها ظلال الأسى وظلال السخرية وقال : « لقد أحسنت القول ياجوفيندا ، وأحسنت التذكر . ولكن ينبغى أن تتذكر أيضا ما أخبرتك به ، وهو أننى قد أصبحت قليل الثقة بالتعاليم والعلم ، وأننى قليل الإيمان بالكلمات التى تأتى إلينا من المعلمين . ولكن حسن ياصديقى .. أنا على استعداد للاستماع إلى التعاليم الجديدة ، وإن كنت أعتقد فى قرارة نفسى أننا قد تذوقنا فعلا أفضل ثمارها » .

فأجاب جوفيندا : « يسرنى أنك وافقت . ولكن أخبرنى .. كيف يمكن أن تفضى إلينا تعاليم « جوتاما » بأنفس ثمارها قبل أن نصغى إليها ؟ »

قال سيد هارتا : « دعنا نستمتع بهذه الثمرة يا جوفيندا انتظارا لمزيد من الثمار .. هذه الثمرة التى ندين بها لجوتاما فعلا تكمن فى هذه الحقيقة ، وهى أنه قد أغرانا بالانفصال عن السامانا . أما أن كان هناك ثمار أخرى أفضل ، فدعنا ننتظر صابرين لنرى .. » وفى ذلك اليوم نفسه أبلغ سيد هارتا كبير السامانا بعزمه على الرحيل .. وقد أفضى إلى الرجل العجوز بهذا القرار فى أدب وتواضع يليقان بالشبان الصغار والتلاميذ ..

بيد أن الرجل العجوز أغضبه أن كلا من الشابين يريد أن يتركه ، فرفع صوته وأنبهما بشدة ..

وارتاع جوفيندا . غير أن سيد هارتا مال بشفتيه على أذن جوفيندا وهمس قائلا : الآن سأظهر الشيخ العجوز على أننى تعلمت منه شيئا » .

ووقف على مقربة من السامانى وقد ركّز ذهنه ، ونظر فى عينى الشيخ العجوز ، وقيده بنظراته وأخمد مقاومته ، وأسكته ، وتغلب على إرادته ، وأمره صامتا أن يفعل ما يشاء منه . وأخلد العجوز إلى الصمت ، وانسدلت على عينيه غشاوة ، وشُلّت إرادته ، وتدلت ذراعاه ، وأصبح بلا حول ولا قوة تحت سحر سيد هارتا .. لقد استولت أفكار سيد هارتا على أفكار السامانى فكان عليه أن يفعل ما يؤمر به . وهكذا انحنى الرجل العجوز عدة مرات ، ومنح بركاته ، وتمتم تمنياته برحلة طيبة . فشكره الشابان على تمنياته الطيبة .. وبادلاه الانحناءة ، ثّم شرعا فى الرحيل ..

وفى الطريق قال جوفيندا : « لقد تعلمت ياسيد هارتا من السامانا أكثر مما ظننت . فمن العسير غاية العسر ، أن تقوم بتنويم سامانى عجوز . والحق أنك لو مكثت هناك لتعلمت سريعا كيفّ تمشى على الماء .. »

وقال سيد هارتا « ليست بى رغبة للسير على الماء .. دع شيوخ السامانا يرضون أنفسهم بأمثال تلك الحيل ..»

الفصل الثالث

جوتاما

فى قرية « سافانى » ، كان كل طفل يعرف اسم « بوذا » الجليل ، وكان كل بيت على استعداد لملء جفنات الحسنات لأتباع « جوتاما » المتسولين فى صمت . وعلى مقربة من القرية ، كان مقر « جوتاما » المفضل هو بستان « جيتاڤانا » الذى أهداه إليه وإلى أتباعه التاجر الثرى أناثا بينديكا ، وكان نصيرا كبيرا للمستنير .

وكان الشابان الزاهدان قد أحيلا فى بحثهما عن مقر « جوتاما » إلى هذا الحى بفضل الحكايات والإجابات التى تلقياها على أسئلتهما .

وعند وصولهما إلى « سافانى » ، قدم إليهما الطعام فورا عند أول بيت وقفا أمام بابه يستجديان فى صمت .. فتقاسما الطعام ، وسأل « سيد هارتا » السيدة التى قدمته إليهما : « أيتها السيدة الطيبة ، إننا نود أن نعرف أين يقيم بوذا الجليل ، فنحن إثنان

من الساما نا أقبلنا من الغابة لنرى « الكامل » ونصغى إلى تعاليمه صادرة من شفتيه هو نفسه . »

فقالت المرأة : « لقد جئتما إلى المكان الصحيح .. أيها السامانيان القادمان من الغابة . إن المستنير يقطن فى جيتاڤانا ، فى حديقة أناثا بينديكا . وتستطيعان قضاء الليل هناك أيها المهاجران ، فهناك متسع للأفواج التى تتدفق للاستماع إلى التعاليم من شفتيه . »

وتهلل وجه جوفيندا وقال مسرورا : « آه ، إذن فقد بلغنا غايتنا ، وانتهت رحلتنا . ولكن أخبرينا – ياأم الحجيج – هل تعرفين بوذا ؟ هل رأيته بعينيك هاتين ؟ »

فقالت المرأة : « لقد رأيت المستنير مرارا . وما أكثر الأيام التى أبصرته فيها يتجول فى الشوراع صامتا فى عباءته الصفراء باسطا جفنة الحسنات عند أبواب المنازل ، ليعود بها مليئة».

وأنصت جوفيندا مبهورا . فأراد أن يوجه أسئلة أخرى كثيرة ، وأن يسمع الكثير ، غير أن سيد هارتا ذكَّره بأن الوقت قد حان للرحيل . فشكرا المرأة ، وانطلقا . ولم تدع الحاجة إلى الاستفسار عن الطريق ، فقد كان هناك عدد من الحجاج والرهبان من أتباع « جوتاما » ، فى طريقهم إلى جيتاڤانا . وعندما وصلا بعد هبوط الليل ، استمر وصول الأفواج الجديدة ، فانبعثت جلبة من الأصوات المتسائلة التى تطلب المأوى وتحصل

عليه . وسرعان ما عثر السامانيان اللذان تعودا حياة الغابة -
على المأوى ، فمكثا هناك حتى الصباح ..

ومنذ شروق الشمس ، أدهشتهما رؤية العدد الكبير من المؤمنين والفضوليين الذين قضوا الليل هناك . وكان الرهبان فى أرديتهم الصفراء يذرعون ممرات الأيكة البديعة ، أو يجلسون هنا وهناك تحت الأشجار ، غارقين فى التأمل ، أو مشتبكين فى حديث محتدم . وكانت الحدائق الوارفة الظلال أشبه بمدينة تعج بالنحل . وما لبث معظم الرهبان أن غادروا المكان - يحملون جفناتهم للحصول على طعام وجبة الظهيرة ، وهى وجبتهم الوحيدة طيلة اليوم . وحتى بوذا نفسه ذهب يستجدى فى الصباح .

ورآه سيد هارتا ، فتعرف عليه فورا ، وكأنما أشار عليه إله .. رآه حاملا جفنته ، مبارحا المكان فى هدوء ، رجلا متواضعا يرتدى قلنسوة صفراء .

قال سيد هارتا فى رفق لجوفيندا : «انظر .. ها هو ذا بوذا» !
ونظر جوفيندا متفحصا الناسك ذا القلنسوة الصفراء الذى لا يمكن تمييزه بأى شىء عن مئات النساك الآخرين . ومع ذلك فقد تعرف عليه جوفيندا فى الحال .. أجل ها هوذا .. وهاهما يتبعانه ويراقبانه .

ومضى بوذا هادئا فى سبيله ، مستغرقا فى خواطره . ولم تكن ملامحه الوديعة سعيدة أو حزينة ، بل كان يبدو عليه أنه يبتسم فى

لطف من الداخل . وبابتسامة مستترة لا تختلف عن ابتسامة طفل موفور الصحة ، مضى فى سيره هادئا وادعا . كان يرتدى عباءته ، ويمشى كما يمشى النساك الآخرون تماما .. غير أن محياه ، ومشيته ، ونظراته الخفيضة الوادعة ، ويده المدلاة المسالمة ، وكل أصبع فى راحته يتحدث عن السلام والاكتمال ، لا يسعى إلى شىء ، ولا يحاكى شيئا ، وإنما يعكس هدوءا متصلا ، ونورا لا يخفت ، وسلاما لا سبيل إلى النيل منه .

وهكذا أخذ جوتاما يتجول فى المدينة استجداءً للحسنات . ولم يتعرف عليه السامانيان إلا بهيئته التى يشع منها السلام الكامل ، وبشكله الذى يتسم بالسكون ، فلا أثر فيه للسعى أو الارادة أو التظاهر أو المجهود - نور وسلام فحسب .

قال جوفيندا : « اليوم سوف نستمع إلى التعاليم من شفتيه ».

فلم يرد عليه « سيد هارتا » ، ذلك أنه لم يكن متلهفا على سماع التعاليم ، ولم يخطر له على بال أنه سيتعلم منها شيئا جديدا . لقد استمع هو وجوفيندا إلى جوهر تعاليم بوذا ، وإن كان ذلك عن روايات غير مباشرة ، ولكنه نظر متمعنا إلى رأس جوتاما ، إلى منكبيه ، وإلى قدميه ، وإلى يده الساكنه المدلاة إلى جانبه ، وخيل إليه أن فى كل مفصل من أنامله تستقر المعرفة .. إنها تتحدث ، تتنفس ، تشع حقيقة .. إن هذا الرجل ، هذا البوذا ، رجل مقدس حقا حتى أطراف أصابعه ، وسيدهارتا لم

يبجِّل فى حياته كلها رجلا مثل هذا التبجيل ، ولم يحب رجلا مثل هذا الحب .

وسار الاثنان فى أعقاب بوذا حتى دخل المدينة ، وعادا منها فى سكون .

وكانا ينويان الصوم عن الطعام ذلك اليوم . وشاهدا جوتاما وهو يعود ، وشاهداه وهو يتناول وجبته فى حلقة من أتباعه . وكان ما أكله لا يكفى عصفورا . ثم شاهداه ، وهو ينسحب إلى ظلال شجرة المانجو .

وفى المساء ، عندما تلطفت حدة الحرارة ، واجتمع كل من فى المعسكر وأرهف أذنيه ، سمعا بوذا وهو يلقى موعظته ، وتناهى إليهما صوته .. وكان هذا أيضا كاملا ، هادئا مفعما بالسلام . كان « جوتاما » يتحدث عن العذاب ، وعن أصل الشقاء ، وطريقة التحرر منه . كانت الحياة ألما ، وكان العالم مليئا بالشقاء ، بيد أن السبيل إلى التحرر من الشقاء قد تم العثور عليه . والخلاص ينتظر أولئك الذين يتبعون سبيل بوذا .

وكان المستنير يتحدث بصوت ناعم ولكنه حازم ، وكان يعلم النقاط الأربع الرئيسية ، ويعلم الطريق ذا الشعب الثمانية ، وفى صبر ، كان يغطى منهج التعليم المعتاد بالأمثلة والتكرار . وكان صوته يصل إلى مستمعيه واضحا صافيا كالنور ، كنجم سابح فى السماء .

فلما انتهى بوذا من موعظته ، وكان الليل قد ألقى مراسيه – تقدم كثير من الحجاج مطالبين بقبولهم فى صفوف الجماعة ، فأعلن بوذا قبولهم قائلا : « لقد أصغيتم جيدا إلى التعاليم فانضموا إلينا إذن ، وخذوا نصيبكم من السعادة ، وضعوا حدًّا للشقاء .. »

وحتى جوفيندا – ذلك الشاب الخجول – تقدم قائلا : « وأريد أنا أيضا أن أعلن ولائى للمستنير وتعاليمه » .

وطلب الانضمام إلى الجماعة ، فأجيب إلى طلبه .

وما أن انسحب « بوذا » لقضاء ليلته حتى التفت جوفيندا إلى « سيدهارتا » قائلا فى لهفة : « ليس لى أن ألومك ياسيدهارتا . لقد استمعنا معا إلى المستنير ، وأصغينا معا إلى تعاليمه .

«أما جوفيندا فقد استمع إلى التعاليم وقبلها ، ولكن أنت ، ياصديقى العزيز ، ألا تريد أن تطأ سبيل الخلاص أنت أيضا هل ستتأخر ، وهل مازلت تنتظر ؟ »

وعندما سمع « سيد هارتا » كلمات جوفيندا استيقظ كأنما كان نائما . فنظر طويلا إلى وجه جوفيندا ، ثم تحدث متئدا وقد خلا صوته من كل سخرية :

« جوفيندا صديقى ، لقد خطوت خطوتك ، واخترت طريقك . لقد كنت دائما صديقى ياجوفيندا ، وكنت تخطو دائما

خلفي . وكثيرا ما فكرت : أيتخذ جوفيندا خطوة دونى نابعة من اقتناعه الخاص؟ وأنت الآن رجل، فقد اخترت سبيلك . فهلا مضيت فيه إلى النهاية ياصديقى لعلك تجد الخلاص!»

ولم يستوعب جوفيندا هذا الكلام . فأعاد سؤاله نافد الصبر : « تكلم ، ياصديقى العزيز ، قل إنك لا تستطيع إلا أن تقسم على الولاء لبوذا . »

ووضع سيدهارتا كفه على كتف جوفيندا : « لقد سمعتنى أباركك ياجوفيندا .. وها أنذا أردد قولى. فلتمض فى الطريق إلى نهايته ، وليكن الخلاص من نصيبك » .

وفى هذه اللحظة أدرك جوفيندا أن صديقه يفترق عنه فطفق يبكى ، وصاح : « سيدهارتا ! »

وتحدث إليه سيدهارتا متلطفا : « لا تنس ياجوفيندا أنك تنتمى الآن إلى رجال بوذا المقدسين . وقد هجرت بيتك وأهلك ونبذت أصلك وما تملك ، بل تخليت عن إرادتك ونزلت عن الصداقة .. هذا ما تدعو إليه التعاليم وهذه هى إرادة المستنير . وغدا سوف أفترق عنك ياجوفيندا .. »

وظل الصديقان يتسكعان فى الغابة وقتا طويلا . ورقدا طويلا ولكنهما لم يتمكنا من النوم ، وألح جوفيندا على صديقه مرة بعد أخرى أن يصارحه بما دفعه إلى الامتناع عن اتباع تعاليم بوذا ، وأى عيب يراه فيها .. بيد أن سيدهارتا كان يصرفه فى كل مرة :

« اطمئن ياجوفيندا ، إن تعاليم المستنير سليمة جدا ، فكيف أجد فيها ما يعيبها ؟ »

وفى الصباح الباكر ذهب واحد من أتباع بوذا ، واحد من أكبر نساكه سنا - إلى الحديقة ، ودعا إليه كل الاشخاص الجدد الذين حلفوا يمين الولاء للتعاليم لكى يخلع عليهم العباءة الصفراء ، ولكى يلقنهم التعاليم الأولى وواجبات الطريقة ، ولم يلبث جوفيندا أن انصرف عنهم ، فعانق رفيق صباه ، ثم ارتدى عباءة الناسك .

وأخذ سيدهارتا يتجول خلال الأيكة غارقا فى عميق أفكاره ..

وهناك التقى بجوتاما ، المستنير ، وما أن حياه باحترام ، وشاهد على وجه بوذا تعبيرا زاخرا بالطيبة والسلام ، حتى استجمع الشاب شجاعته ، واستأذن المستنير أن يتحدث إليه ، فأطرق المستنير برأسه صامتا علامة على الموافقة .

قال سيد هارتا « بالأمس ، كان من دواعى سرورى - أيها المستنير - أن أستمع إلى تعاليمك المدهشة .. وكنت قد أتيت من بعيد أنا وصديقى للاستماع إليك ، والآن سيبقى صديقى معك ، فقد أقسم يمين الولاء لك . أما أنا فأواصل رحلتى من جديد » .

قال المستنير فى أدب : « لك ما تشاء » .

وواصل سيدهارتا حديثه قائلا : « ربما كان حديثى أجرأ من

اللازم ، ولكننى لا أريد أن أترك المستنير دون أن أنقل إليه أفكارى بأمانة . فهلا استمع إلىّ المستنير فترة أطول قليلا » .

وأطرق بوذا موافقا فى صمت .

قال سيدهارتا : « أيها المستنير ، أعجبتنى تعاليمك فى شىء واحد فوق كل شىء .. كل شىء كامل الوضوح .. تدعمه البراهين ، وأنت تصور العالم بوصفه سلسلة كاملة لا انقطاع فيها .. سلسلة أبدية تترابط بالعلة والمعلول . إن العالم لم يُعْرض قط بمثل هذا الوضوح ، ولم تتم البرهنة عليه أبدا بمثل هذه البراهين التى لا تدحض . وليس من شك أن قلب كل برهمى ستزداد سرعة دقاته عندما ينظر إلى العالم من خلال تعاليمك ، فيجده متلاحما تلاحما تاما ، دون أية ثغرة ، صافيًا كالبلور ، لا يعتمد على المصادفة ، ولا يعتمد على الآلهة . وسواء أكان ذلك خيرا أم شرا ، وسواء أكانت الحياة فى ذاتها ألما أم لذة ، وسواء أكان ذلك غير يقينىَ - أى حتى إن كان الأمر كذلك ، فليس مهما - ولكن وحدة العالم وتلاحم الأحداث جميعا ، واشتمال كل كبيرة وصغيرة فى تيار واحد ، فى قانون واحد ، فى قانون واحد للعلية ، للصيرورة والفناء : هذا كله يسطع واضحا من تعاليمك السامية ، أيها - الكامل . غير أن هذه الوحدة وهذا السياق المنطقى للأشياء جميعا يتحطم - وفقا لتعاليمك - فى مكان واحد .. فمن خلال فجوة صغيرة يندفع إلى عالم الوحدة

شيء غريبٌ – شيء جديد .. شيء لم يكن هناك من قبل ، ولا سبيل إلى إثباته أو البرهنة عليه . أعني مذهبك فى الارتفاع فوق العالم ، فى الخلاص فبهذه الفجوة الصغيرة ، ومن خلال هذا الصدع الضيق ، يتحطم قانون العالم الأبدى الفريد مرة أخرى .. سامحنى إن أنا أثرت هذا الاعتراض .. » .

واستمع جوتاما فى هدوء وبلا حراك . والآن جاء دور « الكامل » ليتحدث فى صوت عطوف مهذب صاف : « لقد أنصت جيدا إلى التعاليم يا ابن البرهمى . ومما يحسب لك أنك فكرت فيها بمثل هذا العمق .. وقد وجدت فيها عيبا ، فكر فى ذلك مرة أخرى ، ودعنى أحذرك أنت المتعطش إلى المعرفة – من دغل الآراء ، وتضارب الألفاظ . الآراء لا تعنى شيئا ، قد تكون جميلة أو قبيحة ، ذكية أو حمقاء .. وكل إنسان يستطيع أن يحتضنها ، أو يرفضها . والتعاليم التى استمعت إليها ليست رأيى على كل حال ، وليس هدفها أن تفسر العالم لأولئك المتعطشين إلى المعرفة .. إن هدفها جد مختلف ، هدفها هو الخلاص من الألم .. هذا هو ما يبشر به جوتاما ولا شيء سواه » . وقال الشاب : « لا تغضبْ منى أيها المستنير . فأنا لم أتحدث إليك على هذا النحو لأتشاجر معك حول الالفاظ . أنت على حق عندما تقول إن الآراء لا تعنى إلا قليلا ، ولكن هل لى أن أقول شيئا آخر ، أنا لا أشك فيك لحظة واحدة ، ولا أشك فى أنك بوذا

لحظة واحدة ، وفى أنك بلغت الهدف الأسمى الذى تجاهد الآلاف المؤلفة من البراهمة وأبناء البراهمة للوصول إليه .

« ولقد فعلت ذلك ببحثك الخاص وطريقتك الخاصة من خلال الفكر والتأمل والمعرفة والاستنارة .. فأنت لم تعلم شيئا عن طريق التعاليم – وهذا ما أعتقده – يأيها المستنير – إن أحدا لا يجد الخلاص عن طريق التعاليم ، ولا تستطيع أيها المستنير أن تنقل إلى أحد بواسطة الألفاظ والتعاليم – ما حدث لك ساعة الاستنارة .. إن تعاليم المستنير بوذا تشتمل على الكثير : كيف يعيش المرء حياة صالحة ، وكيف يتجنب الشر ، ولكن هناك شيء واحد لا تحتويه هذه التعاليم الواضحة الجلية .. إنها لا تضم سر ما عاناه المستنير بنفسه – هو وحده بين مئات الألوف – هذا هو ما فكرت فيه وأدركته عندما أصغيت إلى تعاليمك ، وهذا هو ما يدعونى إلى المضى فى طريقى – لا بحثا عن مذهب آخر أفضل . فأنا أعلم أنه لا وجود لهذا المذهب – ولكن هجرانا لكل المذاهب ولكل المعلمين ، حتى أبلغ هدفى وحدى ، أو أموت دونه . بيد أننى سأتذكر دائما هذا اليوم – أيها المستنير – وهذه الساعة التى وقعت فيها عيناى على رجل مقدس » .

وكانت عينا بوذا خفيضتين ، ووجهه الذى لا يسبر غوره يعبر عن الاتزان التام . قال المستنير متمهلا : « أرجو ألا تكون

مخطئا فى استنتاجك .. فليحالفك التوفيق فى بلوغ هدفك . ولكن قل لى ، هل رأيت جماعتى من الرجال المقدسين ، إخوانى الكثيرين الذين حلفوا يمين الولاء للتعاليم ؟ أو تعتقد أيها السامانى القادم من بعيد أنه من الأفضل لهؤلاء جميعا أن يتنكروا للتعاليم ، وأن يرتدوا لحياة العالم والشهوات ؟ فصاح سيدهارتا : « إن هذه الفكرة لم تخطر قط على بالى . فليتبعوا جميعا تلك التعاليم وليبلغوا هدفهم . فليس من حقى أن أحكم على حياة الآخرين . وما علىّ إلا أن أحكم لنفسى . يجب على أن اختار وأرفض . ونحن السامانا نسعى إلى الانعتاق من « الذات » أيها المستنير ، ولو كنت واحدا من أتباعك ، لخشيت أن يكون ذلك على السطح فحسب ، وإنى أخدع نفسى عندما أظن أننى فى سلام مع العالم ، وأننى اكتسبت الخلاص ، وتكون الحقيقة هى أن « الذات » مستمرة فى الحياة والنماء ، إذ أكون قد تحولت إلى تعاليمك وإلى ولائى وحبى لك ولطائفة النساك » . وبنصف ابتسامة ، وفى إشراق ومودة لا يعكر صفاءهما شىء ، نظر بوذا فى ثبات إلى الشاب الغريب ، وصرفه بحركة لاتكاد ترى ..

وقال المستنير : « أنت ذكى أيها السامانى ، وأنت تعرف كيف تتحدث بذكاء ياصديقى . فلتأخذ حذرك ضد الذكاء المفرط .. »

ومضى بوذا مبتعدا ، غير أن نظرته ونصف ابتسامته بقيتا مطبوعتين فى ذاكرة سيدهارتا إلى الأبد ، وقال فى نفسه إننى لم

أشاهد فى حياتى أبدا شخصا ينظر ويبتسم ، يجلس ويمشى ، مثل هذا الرجل . وأننى لأحب أنا أيضا أن أنظر وابتسم ، وأجلس وأمشى مثل هذا ، متحررا ، نبيلا ، رابط الجأش ، صريحا ، طفوليا ، غامضا فى وقت معًا . فلا ينظر إنسان ويمشى على هذا النحو إلا إذا كان قد انتصر على « ذاته » ، وأنا أيضا سأنتصر على « ذاتى » .

وقال سيدهارتا فى نفسه : لقد رأيت رجلا واحدا .. رجلا واحدا فحسب لابد أن أغض من طرفى أمامه . ولن أغض من طرفى إزاء أى إنسان آخر . ولن تجتذبنى تعاليم أخرى مادامت تعاليم هذا الرجل لم تفعل ذلك ..

وقال سيدهارتا فى نفسه : إن بوذا قد سلبنى .. لقد سلبنى ومع ذلك أعطانى شيئا أكثر قيمة . سلبنى صديقى الذى كان يؤمن بى وهو الآن يؤمن به .. لقد كان ظلى وهو الآن ظل جوتاما .. ولكنه أعطانى سيدهارتا ، أعطانى نفسى ..

الفصل الرابع

اليقظة

عندما غادر « سيد هارتا » البستان الذى بقى فيه بوذا الكامل ، وبقى فيه جوفيندا ، أحس أنه ترك أيضا حياته السابقة وراء ظهره فى البستان .. وكانت رأسه مليئة بهذه الفكرة وهو يمضى متثاقلا فى طريقه .. كان يفكر مليا حتى استولى عليه هذا الشعور من جميع أقطاره ، وبلغ نقطة أدرك عندها الأسباب ذلك أن إدراك الأسباب معناه أن يفكر ، على ما يبدو له ، ومن خلال التفكير وحده تتحول المشاعر إلى معرفة ، فلا يكون نصيبها الضياع ، بل تصبح شيئا واقعا ، وتبدأ فى النضج .

كان سيد هارتا يفكر تفكيرا عميقا وهو يمضى فى سبيله .. فأدرك أنه لم يعد شابا ، بل أصبح الآن رجلا ، وأدرك أن شيئا ما قد بارحه كالجلد القديم الذى يخلعه الثعبان .. شيئا لم يعد فيه الآن ، شيئا صاحبه فى شبابه وكان جزءا منه : هذا الشىء هو أن

يكون له معلمون ، وأن يستمع إلى تعاليمهم . لقد ترك الآن آخر معلم صادفه ، حتى وإن كان هو - أعظم وأحكم مدرس ، أقدسهم جميعا .. بوذا .. كان لابد أن يتركه فهو لا يستطيع أن يقبل تعاليمه ..

ومضى المفكر فى سبيله متمهلا ، وتساءل : ما هذا الذى كنت تريد أن تتعلمه من التعاليم والمعلمين ؟ . ومع أنهم قد علموك الكثير ، فما ذلك الشيء الذى لم يستطيعوا تعليمه إياك ؟ وهداه تفكيره إلى أنها « الذات » . هى شخصية وطبيعة ما أردت أن أتعلمه . لقد أردت أن أخلص نفسى من « الذات » ، وأن أتغلب عليها ، ولكننى لم استطع ، كل ما أستطعته هو أن أخدع نفسى ، وأن أهرب منها ، وأن أتخفى عنها . حقا إن شيئا فى هذاالعالم لم يشغل أفكارى كما شغلته « الذات » ، هذا اللغز .. لغز أننى أحيا ، وأننى واحد ومنفصل ومختلف عن كل شيء سواى ، إننى سيد هارتا . وما أعرفه عن نفسى ، عن سيد هارتا ، أقل مما أعرفه عن أى شيء آخر فى العالم .

وفجأة تسمر المفكر الذى كان ماضيا ببطء فى طريقه ، وقد أمسكت بتلابيبه هذه الفكرة .. ومنها انبثقت على الفور فكرة أخرى : إن السبب الذى جعلنى جاهلا بنفسى ، السبب الذى أبقى سيد هارتا غريبا مجهولا من نفسى ، يرجع إلى شيء واحد .. إلى شيء واحد فحسب - هو أننى كنت خائفا من

نفسى ، كنت أهرب من نفسى .. كنت أبحث عن « براهما » ، عن « أتمان » ، وأردت أن أحطم نفسى ، وأن أهرب منها ، حتى أجد فى الأعماق المجهولة نواة الأشياء جميعا ، أتمان ، الحياة ، الإلهى ، المطلق ، ولكننى بصنيعى ذاك ، فقدت نفسى فى الطريق . وصَعَّد سيد هارتا بصره ، وتلفت حواليه ، وتسللت ابتسامة على وجهه ، وشاع فى كيانه مباشرة شعور قوى باليقظة من حلم طويل . فواصل سيره مسرعا هذه المرة كرجل يعرف ما ينبغى عليه أن يصنع ..

أجل .. لن أحاول بعد الآن الهروب من سيد هارتا .. وتنفس نفسا عميقا .. لن أكرس أفكارى بعد اليوم لأتمان ، أو لأحزان العالم ، ولن أشوه نفسى أو أحطمها بحثا عن سر تحت الحطام . لن أدرس بعد اليوم يوجا - فيدا ، أو أتارفا - فيدا ، أو الزهد ، أو أية تعاليم أخرى .. - سأتعلم من نفسى ، سأكون تلميذ نفسى .. سأتعلم من نفسى سر سيد هارتا ..

وتلفت حوله كأنما يرى العالم لأول مرة - كانت الدنيا جميلة ، غريبة غامضة . هنا تشيع الزرقة ، وهنا تنتشر الصفرة .. وهنا تموج الخضرة .. وهنا السماء والنهر ، الغابات والجبال ، كلها جميلة ، غامضة ، مسحورة ، وفى وسط هذا كله كان هو سيد هارتا ، المستيقظ ، فى طريقه إلى نفسه .. كل هذا ، كل هذه الصفرة والزرقة . النهر والغابة .. تمر للمرة الأولى أمام عينى سيد

هارتا . إنها لم تعد سحر الوهم « مارا » ، ولم تعد حجب المايا « الخداع والزيف » .. إنها لم تعد خالية من المعنى أو مصادفة التنوعات التى تنسج مظاهر العالم والتى يزدريها البراهمة — المتعمقون فى الفكر ، الذين يحتقرون التنوع ، ويلتمسون الوحدة ، النهر هو النهر ، وإذا كان « الواحد » و « الالهى » فى سيد هارتا هو الذى يعيش سرا فى الزرقة والنهر ، فإن الفن الإلهى والقصد الإلهى هو الذى قضى بأن يكون هناك أصفر وأزرق ، سماء وغابة — وأن يكون هنا سيد هارتا . إن المعنى والحقيقة لا يحتجبان فى مكان ما وراء الأشياء .. وإنما هما فى الأشياء ، فيها جميعا .

كم كنت أصم وغبيا ، هكذا قال وهو يمضى مسرعا : عندما يقرأ أحد أى شىء يريد أن يدرسه ، فإنه لا يحتقر الحروف وعلامات التنقيط فيدعوها وهما ومصادفة وأصدافا فارغة ، ولكنه يقرأها ويدرسها ويحبها حرفا حرفا . أما أنا الذى يريد أن يقرأ كتاب الوجود ، وكتاب طبيعتى أنا الخاصة .. فأدعى احتقار الحروف والعلامات ، وأسمى عالم الظواهر وهما ، وأدعو عينى ولسانى ، صدفة . والآن انتهى كل شىء ، فقد استيقظت ، لقد استيقظت حقا ، ولم أولد إلا اليوم فحسب ..

ولكن .. بينما كانت هذه الخواطر تعبر ذهن سيد هارتا ، توقف فجأة وكأنما اعترض طريقه ثعبان ..

وفجأة أيضا اتضحت له هذه الفكرة : إنه ينبغى عليه وهو الذى استيقظ فى الحقيقة ، أو وُلِد من جديد - أن يبدأ حياته بداية جديدة تماما . وعندما ترك بستان جيتاڤانا ذلك الصباح ، بستان المستنير .. بعد أن استيقظ فعلا ، اتجهت نيته ، وكان هذا هو الطريق الطبيعى بالنسبة إليه بعد سنوات الزهد - إلى العودة إلى بيته وإلى أبيه - ولكنه الآن فى هذه - اللحظة التى يقف فيها جامدا كأنما يعترض سبيله ثعبان ، خطرت له هذه الفكرة أيضا : إننى لم أعد كما كنت ، لم أعد زاهدا أو كاهنا أو برهميا ، فما ذا سأصنع فى البيت مع أبى ؟ أدرس ؟ أقدم القرابين ؟ أمارس التأمل ؟ لقد انتهى هذا كله بالنسبة إلى الآن .

وقف سيد هارتا ساكنا . وأخذته رعشة ثلجية لم تستمر سوى لحظة . وانتابته رجفة داخلية ، كأنه حيوان صغير أو عصفور أو أرنب برى ، عندما أدرك كم هو وحيد ، لقد عاش بلا مأوى أعواما طوالا ، ولكنه لم يشعر بمثل ما يشعر به الآن .. كان فيما سبق عندما يستغرقه التأمل العميق ، عندما كان ابن ابيه ، كان برهميا ذا مكانة رفيعة . رجلا من رجال الدين - أما الآن فلم يعد إلا سيد هارتا فحسب .. المستيقظ ، ولا شىء غير ذلك . وأخذ أنفاسا عميقة ، فارتعشت أطرافه لحظة . إن أحدًا لا يعانى من الوحدة ما يعانيه . لم يكن نبيلا ينتمى إلى أية ارستقراطية ؛ أو صانعا ينتمى إلى أية طائفة من الصناع يلوذ بها ويشاطرها

حياتها ولغتها ؛ ولم يكن برهميا يشارك فى حياة البراهمة ، أو زاهدا ينتسب إلى الساماناً .. بل إن أكثر النساك انعزالا فى الغابات ، لم يكن فردا وحيدا لأنه ينتمى أيضا إلى فئة من الناس . لقد أصبح جوفيندا ناسكا ، وآلاف من النساك قد صاروا إخوانه يرتدون نفس العباءة ويشاطرونه نفس المعتقدات ويتحدثون لغته . أما هو « سيدهارتا » ، فإلى من ينتمى ؟ ومن ذا الذى يشاطره حياته ؟ ولغة من تلك التى يتحدثها ؟ .

وفى هذه اللحظة ، عندما أخذت الدنيا تذوب من حوله ، وعندما وقف وحيدا كالنجم فى السماء ، طغى عليه شعور من يأس ثلجىّ ، ولكنه كان نفسه فى حزم أكثر من أى وقت مضى . كانت هذه آخر رعدة صاحبت يقظته .. إنها آلام الميلاد الأخيرة .. واستأنف سيره على الفور وبدأ يمشى سريعا نافد الصبر .. غير متجه إلى بيته ، أو متجه إلى أبيه .. أو ناظرا إلى الوراء ..

الفصل الخامس

كماله

كان سيد هارتا يتعلم شيئا جديدا فى كل خطوة يخطوها فى طريقه ، ذلك أن العالم قد تحول فى ناظريه ، وكان به مبهورا . رأى الشمس تشرق فوق الغابة والجبال ، وتغرب فوق الشاطئ النخيلى البعيد . وفى الليل كان يرى النجوم فى السماء ، والقمر الذى يشبه المنجل طافيا كالزورق فوق ثبج الموج الأزرق ..

ورأى الأشجار والنجوم والحيوان ، والسحب وأقواس قزح ، والصخور ، والأعشاب والأزهار والجداول والأنهار وألق الندى على الآكام فى الصباح ، والجبال النائية زرقاء شاحبة . وكانت الطيور تغرد ، والنحل يطن ، والريح تهب واهنة خلال حقول الأرز .. كان هذا كله مصطبغا بالألوان ، وفى آلاف الأشكال المختلفة هناك دائما وأبدا .. ولقد أشرقت الشمس ، وبزغ القمر باستمرار .. كما تدفقت الأنهار ، وطن النحل – بيد أن هذا كله لم يكن فى الأيام الخالية شيئا بالنسبة لسيد هارتا .. لم يكن أكثر

من حجاب وهمى عابر يمر أمام عينيه ، فينظر إليه مرتابا ، ويحكم بتجاهله واستبعاده من الأفكار لأنه ليس حقيقيا ، ولأن الحقيقة تستقر فى الجانب الآخر من المرئى . أما الآن ، فإن عينيه تتلبثان عند هذا الجانب ، لقد شاهد المرئى وأدركه ، وبحث عن مكانه فى هذا العالم . إنه لم يبحث عن الحقيقة ، وهدفه لا يوجد على أى جانب آخر . لقد كان العالم جميلا منظورا إليه على هذا النحو دون بحث .. كان بسيطا غاية البساطة ، بل طفوليا . وكان القمر والنجوم فاتنة ، والغدير والشاطئ والغابة والصخرة ، والعنزة ، والجعران الذهبى ، والزهرة ، والفراشة .. كل هذا بديع . وكم كان جميلا وممتعا أن يمضى فى العالم على هذا النحو كالطفل ، مستيقظا ، لا يعنيه إلا المباشر دون أى ارتياب . وهناك فى مكان آخر كانت الشمس تحترق فى عنفوان ، وفى مكان ثان كان البرد يسرى فى ظلال الغابة ، وفى مكان ثالث كان يوجد اليقطين والموز ، وكانت الأيام والليالى قصارا ، وكل ساعة تمر سراعا كشراع فوق لجة البحر ، تحت شراع سفينة حافلة بالكنوز مترعة بالمتعة . وشاهد سيد هارتا جماعة من القردة فى أعماق الغابة ، تتواثب عاليا بين الأغصان ، وتناهت إلى أذنيه صرخاتها الوحشية اللهيفة . ورأى سيد هارتا حملا يسير فى أعقاب شاة وزوجها . وفى بحيرة من السمار، شاهد أسماك البورى تطارد صيدها لوجبة المساء .. وثمة أسراب من الأسماك

الصغيرة تَرِفُّ وتتألق ، وتبتعد فى لهفة عن السمكة الكبيرة . وانعكست الفوه والرغبة فى دوامات الماء التى تحركها الصائده المهتاجة . كان هذا كله موجودا دائما وأبدا ، ولكنه لم يشاهده قط ، لم يكن حاضرا على الإطلاق . أما الآن فهو حاضر ، وهو ينتمى إلى هذا كله . ومن خلال عينيه رأى الأنوار والظلال ، ومن خلال عقله أدرك القمر والنجوم .

وتذكر سيد هارتا وهو سادر فى طريقه تجربته كلها فى حديقة جيتاڤانا ، والتعاليم التى استمع إليها هناك من بوذا المقدس ، وافتراقه عن جوفيندا ، ومحادثته مع الجليل . وتذكر كل كلمة قالها للجليل ، وأدهشه أنه قال أشياء لم يكن يعرفها حينذاك حق المعرفة . إن ما قاله لبوذا من أن حكمته وسره أمور لا سبيل إلى تعليمها ، أو التعبير عنها ، أو نقلها إلى الآخرين ، وهى الأشياء التى عاناها فى ساعة تنوير ، هى نفسها الأشياء التى جعلها موضع تجربته ، والتى بدأ الآن فى تجربتها . لابد من أن يكتسب الخبرة بنفسه . كان يعلم منذ أمد طويل أن ذاته هى « آتمان » وأنها من نفس الطبيعة الأبدية لبراهما . ولكنه لم يجد ذاته فى الحقيقة أبدا .. ، لأنه أراد أن يتصيدها فى شبكة الأفكار . ليس الجسم هو « الذات » بكل تأكيد ، وليست هى لعبة الحواس ، أو الفكر أو الذهن ، وليست هى الحكمة المكتسبة ، أو الفن الذى تستخلص به النتائج أو الذى ننسج به من

الأفكار الموجودة فعلا أفكارًا جديدة ... كلا ، إن عالم الفكر هذا مازال على هذا الجانب ولا يؤدى إلى هدف – عندما يحطم المرء حواس الذات العرضية ليغذيها بالأفكار والحصافة ، إن كلا من الفكر والحواس شيء بديع ، ووراءهما يحتجب المعنى الأخير ، ويجدر بنا حين نستمع إليهما معا ، أن نتعامل معهما ، لا أن نزدريهما ، أو نغالى من شأنهما ، ولكن أن ننصت باهتمام إلى الصوتين معا . إن سيد هارتا لن يسعى إلا وراء ما يمليه عليه الصوت الداخلى ، ولن يمكث إلا حيثما ينصحه الصوت , لماذا جلس جوتاما ذات مرة تحت شجرة التين فى أعظم ساعاته عندما تلقى التنوير ؟ لقد سمع صوتا ، صوتا فى أعماق قلبه يأمره أن يلتمس الراحة تحت هذه الشجرة ولم يكن قد لجأ إلى إهلاك الجسد أو تقديم القرابين ، أو أداء طقوس التطهير والصلوات . كان يأكل ويشرب – وينام ويحلم ، ولكنه استمع إلى الصوت . على المرء ألا يطيع أى أمر خارجى ، وإنما عليه أن يطيع الصوت وحده . وأن يكون مستعدا – هذا هو المطلوب ، وهذا هو الضرورى ولا شيء غيره .

وأثناء الليل عندما نام فى كوخ من القش يملكه نوتى ، رأى سيد هارتا حلما . حلم أن جوفيندا يقف أمامه مرتديا عباءة الناسك الصفراء . وكان جوفيندا يبدو حزينا وسأله : « لماذا تركتنى ؟ » وهنا عانق جوفيندا وطوقه بذراعيه . وعندما جلبه

إلى صدره وهم بتقبيله ، لم يعد جوفيندا ، بل تحول إلى امرأة ، ومن ثوب هذه المرأة برز صدر ناهد ، فرقد سيد هارتا عليه ورضع منه .. وكان مذاق اللبن من هذا الصدر عذبا قويا .. امتزج فى مذاقه الرجل والمرأة ، الشمس والغابة ، الحيوان والزهر ، وكل الثمار وكل الملذات . كان لبنا مُسْكِرا . وعندما استيقظ سيد هارتا ، كان النهر الشاحب يتألق بجوار باب الكوخ ، وفى الغابة ترددت صيحة بومة عميقة واضحة . ولما طلع النهار ، طلب سيد هارتا من مضيفه-الملاح أن يقله عبر النهر .. فعبر به الملاح النهر فوق طوفه المصنوع من الخيرزان « البامبو » . وكانت صفحة الماء العريضة تتلألأ أرجوانية فى ضوء الصباح ..

قال لرفيقه « إنه نهر جميل » .

فقال الملاح : « أجل .. إنه نهر غاية فى الجمال .. وأنا أحبه أكثر من أى شىء آخر . وكثيرا ما استمعت إليه ، وحدقت فيه ، وكنت أتعلم منه دائما شيئا ما . يستطيع المرء أن يتعلم الكثير من نهر » .

قال سيد هارتا وهو يهبط على الضفة الأخرى « شكرا لك أيها الرجل الطيب . وأخشى ألا تكون معى أية هدية أعطيها لك أو أى أجر . إننى بلا مأوى ، ابن برهمى وساماني .. » .

قال الملاح : « أستطيع أن أرى ذلك ، ولم أتوقع منك هدية

أو أجر .. وسوف تعطينى فى وقت آخر .. » .

فسأله سيد هارتا مداعبا : « أتظن ذلك ؟ » .

- « بكل تأكيد .. وهذا ما تعلمته من النهر أيضا .. كل شيء يعود .. وأنت أيها السامانى - ستعود .. والآن وداعا .. ولتكن صداقتك هى أجرى .. ولتفكر فىّ عندما تضحى للآلهة .. » .

وابتسما وهما يفترقان . كان سيد هارتا سعيدا بروح الصداقة التى يتحلى بها الملاح . وخطر له وهو يبتسم أنه يشبه جوفيندا .. إن كل من ألقاه فى طريقى يشبه جوفيندا .. الكل معترف بالجميل . وإن كانوا هم أنفسهم جديرين بالشكر . الكل خائفون يريدون أن يكونوا أصدقاء ، أن يطيعوا ويفكروا قليلا .. الناس أطفال ..

وفى وقت الظهيرة مر بقرية . كان الأطفال يرقصون فى زقاق أمام أكواخ من الطين . وكانوا يلعبون بأحجار من اليقطين وبلح البحر (نوع من المحار) ، ويتصايحون ويتضاربون ، ولكنهم تفرقوا هاربين خوفا عندما شاهدوا السامانى الغريب .. وعند طرف القرية انعطف الطريق فى محاذاة غدير ، وعند حافة الغدير ركعت امرأة شابة تغسل الثياب . وعندما حياها سيد هارتا ، رفعت رأسها ونظرت إليه بابتسامة ، حتى استطاع أن يرى بياض عينيها وهو يلمع . فطلب منها البركة كما هى عادة

المسافرين .. وسألها عن مدى المسافة التى يقطعها من الطريق حتى يبلغ المدينة الكبيرة ، وهنا نهضت المرأة وأقبلت نحوه وشفتاها الرطبتان تتألقان على نحو جذاب فى وجهها الغض . وتبادلت وإياه ملاحظات خفيفة ، وسألته إن كان قد تناول طعامه ، وهل ينام السامانا وحدهم حقا فى الغابة أثناء الليل ، وبأنه لا يُسمح لهم أن يصحبوا أية امرأة معهم . ثم وضعت قدمها اليسرى على قدمه اليمنى وأتت بحركة ، هى الحركة التى تأتى بها امرأة حين تدعو رجلا إلى ذلك النوع من متعة الحب الذى تسميه الكتب المقدسة « طلوع الشجرة » . وأحس سيد هارتا بدمائه تشتعل ، وعندما أدرك حلمه مرة أخرى فى هذه اللحظة انحنى قليلا صوب المرأة ، وقَبَّل صدرها . وعندما رفع رأسه رأى وجهها مبتسما ، مفعما بالشهوة ، وعينيها نصف المغمضتين تصرخان بالشوق .

كان سيد هارتا يشعر بالشوق أيضا وبالرغبة الجنسية . ولكن لأنه لم يلامس امرأة قط ، فقد تردد برهة ، وإن تأهبت يداه لاحتضانها .. فى هذه اللحظة سمع صوته الداخلى ، وقال له الصوت « كلا » . وهنا اختفى السحر كله الذى كان على وجه المرأة الشابة الباسم ، فلم يعد يرى شيئا غير النظرة الحارة المنبعثة من امرأة شهوانية . فربت على وجنتيها فى لطف ، واختفى سريعا عن المرأة التى خيب أملها فى غابة البامبو . وقبل

حلول مساء ذلك اليوم ، وصل إلى مدينة كبيرة ، وكان مسرورا لأن به رغبة تدفعه لأن يكون مع الناس . لقد عاش طويلا فى الغابات . وكان كوخ الملاح المصنوع من القش والذى رقد فيه الليلة الماضية ، هو أول سقف يظله منذ أمد بعيد .

وفى خارج المدينة عند بستان بديع لا تحوطه أسوار ، التقى المتجول بصف قصير من الخدم ، رجالا ونساء يحملون السلال . وفى الوسط فوق مقعد مزخرف يستخدم كمحفة ويحمله أربعة أشخاص ، تربعت امرأة ، هى السيدة ، وأحاطت بها وسائد حمراء ، وحمتها من الشمس ظلة ملونة . فوقف سيد هارتا جامدا عند مدخل البستان . وأخذ يراقب الموكب والحشم من الرجال والنسوه حاملات السلال . نظر إلى المحفة وإلى السيدة المتربعة عليها . فرأى تحت شعرها الأسود الغزير المعقوص فوق رأسها ، وجها مشرقا غاية فى العذوبة ، وغاية فى الذكاء ، وفما أحمر مشرقا كأنه تينة قطفت لتوها ، وحاجبين مرسومين ببراعة على هيئة قوسين مرتفعين ، وعينين داكنتين ، ذكيتين لماحتين ، وعنقا دقيقا صافيا فوق ثوب أخضر موشى بالذهب . وكانت يداها حازمتين ناعمتين طويلتين نحيلتين ، وحول معصيمها التف سواران ذهبيان عريضان .

رأى سيد هارتا كم هى فاتنة . فابتهج قلبه . وانحنى انحناءة بالغة عندما مرت المحفة على مقربة منه ، فلما اعتدلت قامته ،

تفرس فى الوجه المشرق البديع ، وفى العينين الذكيتين ذاتى القوسين ، واستنشق أريج عطر لم يستطع التعرف عليه .

وأومأت المرأة الجميلة لحظة وابتسمت ، ثم اختفت فى جوف البستان يتبعها خدمها ، وقال سيد هارتا فى نفسه : وهكذا أدخل هذه المدينة تحت نجم سعيد . وأحس بحافز إلى دخول البستان حالا ، ولكنه أمعن الفكر ، إذ تمثلت له نظرات الاحتقار والارتياب والنفور التى رماه بها الخدم من الرجال والنساء عند مدخل البستان .

إننى مازلت سامانيا .. مازلتُ ناسكا ومتسولا . لايمكن أن أظل كذلك .

ولن أتمكن من دخول البستان على مثل هذا الحال ، . وضحك .

واستفسر من أوائل الأشخاص الذين صادفهم عن البستان ، وعن اسم المرأة فعلم أنه بستان « كماله » الغانية الشهيرة ، وأنها تملك بجانب البستان بيتا فى المدينة .

ثم دخل المدينة .. لم يكن لديه غير هدف واحد . وفى سبيل تحقيق هذا الهدف ، جاس خلال المدينة ماسحا لها فى متاهة الشوارع ، متوقفا عند بعض الأماكن . ثم استراح على الدرجات الحجرية عند ضفة النهر . وقبيل المساء عقد صداقة مع صبى حلاق أبصر به يعمل فى ظل قوس . ووجده مرة أخرى

أثناء الصلاة فى معبد فيشنو حيث قص عليه حكايات عن فيشنو ولا كشمى . وعندما جن الليل ، نام وسط الزوارق على شاطئ النهر ، وفى الصباح الباكر اتجه إلى الحلاق قبل أن يتوافد أوائل الزبائن على الحانوت . فأزال له صبى الحلاق لحيته ، وكذلك مشطَّ شعره ودهنه بالزيت المعطر ، ثم ذهب ليستحم فى النهر .

وعندما كانت « كماله » الفاتنة تقترب من بستانها فى ساعة متأخرة من العصر ، متربعة فى محفتها ، كان سيد هارتا ماثلا عند المدخل . فانحنى وتلقى تحية الغانية ، وأشار إلى الخادم الأخير فى الموكب ، وطلب منه أن يعلن إلى سيدته أن برهميا شابا يريد أن يتحدث إليها . وعاد الخادم بعد هنيهة ، وطلب من سيد هارتا أن يتبعه ، وقاده صامتا إلى مقصورة حيث كانت « كماله » مضطجعة فوق أريكة ، ثم تركه ..

وسألته كماله : « ألم تكن واقفا فى الخارج أمس وألقيت إلىّ بالتحية ؟ » .

- « بلى بكل تأكيد .. رأيتك أمس ، وألقيت إليك بالتحية » .

- « ولكن ألم تكن لك لحية بالأمس ، وشعر طويل ، وغبار يعلو شعرك ؟ » .

- « لقد لاحظت جيدا ، ورأيت كل شيء . رأيت سيد هارتا ابن البرهمى الذى هجر بيته لكى يصبح سامانيا . وظل سامانيا

ثلاثة أعوام . ولقد تركت الآن ، على كل حال - هذا المسلك ، وأتيت إلى هذه المدينة . وكان أول من صادفته قبل أن أصل المدينة هو أنت . لقد جئت إلى هنا لأخبرك - أى كماله - أنك أول امرأة يتحدث إليها سيد هارتا دون أن يغض من طَرْفه ، ولن أغض من طرفى أبدا بعد ذلك عندما التقى بحسناء » . فابتسمت كماله ، وتلاعبت بمروحتها المصنوعة من ريش الطاووس ثم سألته : « أهذا كل ما جاء سيد هارتا ليخبرنى به ؟ » .

- « جئت لأخبرك بهذا وأشكرك على أنك بهذا الحسن . وإذ لم يكن فى ذلك ما يسوؤك ، أود أن أطلب منك - أى كماله أن تكونى صديقتى ومعلمتى - فأنا لا أعرف شيئا عن الفن الذى أنت أستاذته .. » .

وهنا أطلقت كماله ضحكة عالية .

- « ليس من خبرتى أن يأتى إلى سامانيا من الغابات ويريد أن يتعلم منى . لم يأت إلىّ أبدا سامانىٌّ بشعر طويل ومئزر قديم ممزق . كثير من الشبان حضروا إلى ، ومنهم أبناء براهمة ، ولكنهم أتوا إلىّ فى ثياب فاخرة ، وأحذية فاخرة ، العطر فى شعورهم ، والأموال فى أكياسهم ، هكذا كان الشبان يأتون إلىّ أيها السامانى » .

فقال سيد هارتا : « ها أنذا قد شرعت أتعلم منك . وكنت

بالأمس قد تعلمت شيئا . وفعلا تخلصت من لحيتى ، ومشطت شعرى ، ودهنته بالزيت ، ولم يعد ينقصنى الكثير أيتها السيدة الممتازة : ثياب فاخرة ، وحذاء فاخر ، ومال فى محفظتى . لقد أخذ سيد هارتا على عاتقه تحقيق أشياء كثيرة أصعب كثيرًا من هذه التفاهات .. فبلغ ما يريد . فلماذا لا أبلغ ما عزمت على القيام به أمس ، أن أكون صديقك ، وأن أتعلم منك متاع الحب . ستجدينى تلميذًا نجيبًا يا كماله . ولقد تعلمت أمورا أصعب كثيرا مما ينبغى أن تعليمنى إياه . إذن فسيد هارتا لا يليق بك كما هو الآن . بالزيت فى شعره ولكن بلا ثياب أو حذاء ، وبغير نقود » .

فضحكت كماله وقالت : « كلا .. إنه لا يليق بعد . ينبغى أن تكون له ثياب .. ثياب أنيقه . وحذاء .. حذاء فاخر ، وكثير من النقود فى محفظته ، وهدايا لكماله . هل عرفت الآن أيها السامانى القادم من الغابات ؟ هل فهمت ؟ » وهتف سيد هارتا : « فهمت جيدا جدا . وكيف لا أفهم عندما يخرج الكلام من مثل هذا الثغر ؟ إن ثغرك يشبه تينة قطعت لتوها يا كماله . وشفتاى أيضا حمروان ناضرتان وسيلائمان شفتيك تمام الملائمة ، وسترين . ولكن أخبرينى يا كماله الجميلة ، ألا تشعرين بشىء من الخوف من هذا السامانى القادم من الغابة ليتعلم الحب ؟ » .

– « ولماذا أخاف من سامانى .. سامانى غبى أتى من الغابة لم

يعاشر إلا بنات آوى ، ولا يعرف شيئا عن النساء ؟ » .

- « إن السامانى قوى ، ولا يخشى شيئا إنه يستطيع أن يغتصبك أيتها السيدة الجميلة ، وأن يسرقك ، يستطيع إيذاءك » .

- « كلا ، أيها السامانى ، لست خائفة . هل خشى سامانى أو برهمى قط أن يأتى أحد ليضربه أو يسلبه معرفته أو تقواه ، أو قدرته فى التعمق على التفكير ؟ كلا لأنها أمور يمتلكها فى نفسه ، ويستطيع أن يعطى منها ما يشاء إذا شاء ، هذا هو الحال تماما مع كماله ، ومع متع الحب . إن شفتىْ كماله شهيتان حمراوان ، ولكن حاول تقبيلهما ضد إرادة كماله . فلن تنتزع منهما قطرة واحدة من العذوبة . مع أنهما تعرفان جيدا كيف تمنحان العذوبة . أنت تلميذ نجيب يا سيد هارتا ، إذن فتعلم هذا أيضا . يستطيع المرء أن يستجدى ، وأن يشترى ، وأن يعرض عليه الحب فى الطرقات ، وأن يجده ، ولكنه لا يمكن أن يغتصب . لقد أسأت الفهم . أجل ومما يدعو للأسف أن شابا مهذبا مثلك يسىء الفهم » .

وانحنى سيد هارتا وابتسم « أنت على صواب يا كماله ، إن ذلك يدعو للأسف .. للأسف الشديد . كلا ، ينبغى ألا تضيع أية قطرات من العذوبة من شفتيك أو من شفتى . وإذن سيأتى سيد هارتا مرة أخرى عندما يكون لديه ما ينقصه : الثياب والحذاء

والنقود . ولكن أخبريني يا كماله الفاتنه ، ألا تستطيعين إسداء نصيحة ؟ ولم لا ؟ من ذا الذى لا يسدى نصيحة عن طيب خاطر لساماني مسكين جاهل أتى من بين بنات آوى فى الغابة ؟ .

– « أين أذهب – يا عزيزتى كماله للحصول على هذه الأشياء الثلاثة بأسرع ما يمكن ؟ » .

– « يا صديقى .. أناس كثيرون يريدون أن يعرفوا هذا . وينبغى عليك أن تفعل ما تعلمته ، وتحصل على النقود والثياب والأحذية .. إن الرجل الفقير لا يستطيع الحصول على المال بطريقة أخرى » .

– « أستطيع أن أفكر ، وأنتظر ، وأصوم » .

– « لا شىء سوى ذلك ؟ » .

– « لا شىء . أوه أجل . أستطيع أن أنظم الشعر . هل تمنحيننى قبلة مقابل قصيدة ؟ » .

– « سأفعل ذلك أن أعجبتنى قصيدتك ، ماذا سميتها ؟ » .

وبعد أن فكر سيد هارتا برهة ، أنشد هذه الأبيات :

« دلفت كماله الفاتنة إلى بستانها ، وعلى مدخل البستان وقف السامانى الأسمر ..

– وعندما وقعت عيناه على زهرة اللوتس ،

انحنى انحناءة عميقة .

واستجابت له كماله بابتسامة .

فقال السامانى الشاب فى نفسه :
من الأفضل أن يقدم المرء ،
قرابين لكماله الفاتنة
بدلا من أن يقدمها للآلهة » .
فصفقت كماله بيديها بشدة حتى صلصلت الأساور الذهبية فى معصميها .

- « شِعْرك رائع أيها السامانى الأسمر ، ولن أخسر شيئا بحق ، إن وهبتك قبلة جزاء عليه » .

وقربته منها بعينيها ، فوضع وجهه لصق وجهها ، ووضع شفتيه على شفتيها اللتين كانتا أشبه بتينة قطفت لتوها . وقبلته كماله قبلة عميقة . وفى انفعاله الشديد ، أدرك سيد هارتا أنه تعلم منها الكثير ، وكم كانت ذكية وكيف سيطرت عليه ، وأبعدته عنها ، ثم فتنته . وكيف بعد هذه القبلة الطويلة تنتظره سلسلة طويلة أخرى من القبلات ، كلها مختلفة . فوقف ساكنا يتنفس فى عمق . كان فى هذه اللحظة كطفل استولت عليه الدهشة من اكتمال العلم والمعرفة التى تكشّفت أستارها أمام عينيه .
وقالت كماله : « شعرك جيد جدا ، ولو كنت غنية ، لمنحتك مكافأة عليه .
« ولكن ، سيكون من العسير عليك أن تكسب ما تريد من

مال بالشعر . فسوف تحتاج إلى مال وفير إن أردت أن تكون صديقا لكماله » .

فتلعثم سيد هارتا قائلا : « ما أروع طريقتك فى التقبيل يا كماله ! » .

– « أجل ، بالطبع ، وهذا هو سبب عدم احتياجى للثياب ، والأحذية ، والأساور . وكل تلك الأشياء الجميلة . ولكن ، ماذا أنت صانع ؟ ألا تستطيع أن تفعل شيئا آخر غير التفكير والصيام وقرض الشعر ؟ » .

قال سيد هارتا : « أعرف أيضا « أناشيد القربان » ، ولكننى لن أنشدها بعد الآن . كما أعرف أيضا بعض التعاويذ ، ولكننى لن أتفوه بها بعد الآن . وقد قرأت الكتب المقدسة .. » .

فقاطعته كماله : « انتظر .. أنت تستطيع القراءة والكتابة ؟ » .

– أجل بكل تأكيد ، كثير من الناس يستطيعون ذلك » .

– « ليس معظم الناس ، فأنا لا أستطيع . من حسن الحظ أنك تعرف القراءة والكتابة . حسن جدا . وربما احتجت للتعاويذ أيضا » .

وفى هذه اللحظة دخل خادم ، وهمس بشىء فى أذن سيدته .

قالت كماله : « جائنى زائر .. أسرع بالاختفاء يا سيد هارتا . يجب ألا يراك أحد هنا سأراك غدا مرة أخرى » .

ومهما يكنٍ من أمر ، فقد أمرت الخادم أن يعطى البرهمى المقدس عباءةً بيضاء . وبدون أن يعرف تماما ما يحدث ، قاده الخادم إلى الخارج عن طريق دائرى يؤدى إلى حديقة المنزل ، وقدم إليه العباءة ، وتركه فى الأجمة ، وأصدر إليه تعليمات صريحة بمغادرة البستان دون أن يراه أحد بأسرع ما يمكن ..

وفعل ما أمر به راضيا .. ولما كان معتادا على الغابة ، فقد سلك طريقه صامتا خارج البستان . واجتاز السياج وعاد إلى المدينة راضيا ، وهو يحمل عباءته المفلوفة تحت ذراعه . ووقف عند باب حانة يلتقى عندها المسافرون ، فاستجدى طعامه صامتا وتقبل قطعة من فطيرة الأرز صامتا ، وقال فى نفسه : ربما لا أحتاج غدا إلى استجداء الطعام . وفجأة تملكه شعور بالكبرياء . إنه لم يعد من السامانا ولا يليق به أن يستجدى بعد الآن . فأعطى فطيرة الأرز لكلب وظل بلا طعام .

إن الحياة المعاشة هنا بسيطة . هذا ما قاله فى نفسه .. ولا مصاعب فيها . وعندما كنت مُن السامانا ، كان كل شيء عسيرا ، مضجرا ، باعثا على اليأس فى نهاية الأمر . أما الآن فكل شيء سهل .. سهل كالتعليم الذى تقوم به كماله فى التقبيل . أنا فى حاجة إلى الثياب والنقود . هذا كل ما فى الأمر ..

وهذه أهداف لا تؤرق المرء فى منامه .. وكان قد استفسر عن

منزل كماله فى المدينة ، وذهب إليها فى اليوم التالى :
بادرته قائلة : « الأمور تسير سيرا حسنا . كاما سوامى يتوقع أن تزوره . إنه أغنى تاجر فى المدينة . فإن أعجبته ، ألحقك بخدمته . كن ذكيا أيها السامانى الأسمر . لقد دبرت أن يذكر له اسمك عن طريق أشخاص آخرين . كن ودودا معه ، فهو ذو نفوذ كبير . ولكن لا تكن متواضعا كل التواضع . أنا لا أريدك أن تكون خادما له ، وإنما ند له ، وإلا لن أكون راضية عنك . وكاماسوامى بدأ يطعن فى السن ، ويستمرئ الكسل ، فإن أعجبته فسيضع فيك ثقة عظيمة » .

فشكرها سيد هارتا وضحك . وعندما علمت أنه لم يتناول شيئا من الطعام ذلك اليوم واليوم الذى سبقه ، أمرت بإحضار خبزا وفاكهة له ، وأشرفت على إطعامه ، قالت له عند رحيله : « كنت سعيد الحظ .. فالأبواب تفتح لك واحدا تلو الآخر . كيف حدث هذا ؟ أفيك سحر ؟ » .

فقال سيد هارتا : « أخبرتك أمس أننى أعرف كيف أفكر ، وأنتظر ، وأصوم ، ولكنك لم تعتبرى هذه الأمور مجدية ، ولكنك سترين أنها مجدية جدا يا كماله » ..سترين أن السامانى الغبى القادم من الغابة يعرف كثيرا عن الأشياء النافعة. كنت أول أمس مجرد شحاذ أغبر ، وأمس قَبَّلت كماله ، وسأصبح تاجرا فى

القريب العاجل ، وأملك المال ، وكل تلك الأشياء التى تقدرينها .. » .

فأمّنت على كلامه قائلة : « تماما ، ولكن كيف كان من الممكن أن تتصرف بدونى ؟ وأين ستكون إن لم تساعدك كماله ؟ » .

قال سيد هارتا : « عزيزتى كماله ، عندما أتيت إليك فى البستان ، كان هذا هو الخطوة الأولى .. كانت نيتى معقودة على تعلم الحب من أجمل امرأة . وفى اللحظة التى اتخذتُ فيها ذلك القرار ، كنت أعلم أيضا أننى سأقوم بتنفيذه ، وكنت أعلم أنك ستعيننى عليه ، عرفت ذلك من أول نظرة منك عند مدخل البستان » .

– وإن لم أُرِد ؟ » .

– ولكنك أردت . اسمعى يا كماله ، إنك عندما تلقين حجرا فى الماء ، فإنه يشق أسرع طريق له إلى قاع المياه . وهذا هو حال سيد هارتا عندما يكون له هدف وغاية . سيد هارتا لا يفعل شيئا ، إنه ينتظر ويفكر ويصوم ، ولكنه يشق طريقه فى أمور العالم كما يشق الصخر طريقه فى الماء دون أن يفعل شيئا ، ودون أن يثير نفسه : إنه منجذب ، وهو تارك نفسه للسقوط . إنه منجذب بهدفه ، وهو لا يدع أى شىء يدخل عقله ويكون معارضا لهدفه . هذا ما تعلمه سيد هارتا من السامانا . وهذا

ما يسميه الحمقى سحرا ، وما يعتقدون أنه بفعل الجان . كل إنسان يستطيع أن يصنع السحر . وكل إنسان يستطيع أن يبلغ هدفه إذا استطاع أن يفكر وينتظر ويصوم » .

وانصتت إليه كماله ، فقد أحبت صوته ، وأحبت النظرة فى عينيه ..

قالت بصوت ناعم : « ربما كان الأمر على ما تقول يا صديقى ، وربما كان أيضا لأن سيد هارتا رجل وسيم ، ولأن نظرته تنال استحسان النساء ، ولأنه محظوظ » . وقبلها سيد هارتا مودّعا : « ربما كان الأمر على هذا النحو يا معلمتى . وياليت نظرتى تنال إعجابك دائما ، وأن يأتى إلىّ الحظ السعيد منك دائما ! » .

الفصل السادس

مع النـــاس

ذهب « سيد هارتا » لرؤية « كاماسوامى » التاجر ، فأرشدوه إلى منزل بادى الثراء ، وقاده الخدم عبر سجاجيد نفيسة إلى حجرة انتظر فيها رب المنزل .

ودخل « كاماسوامى » الحجرة .. رجل مرن الجسم ، يفيض حيوية ، رمادى الشعر ، له عينان ذكيتان ماكرتان ، وفم شهوانى ، وحيا السيد والزائر كل منهما الآخر فى مودة .

بدأ التاجر قائلا : « قيل لى إنك برهمى ، ورجل علم ، ولكنك تبحث عن عمل مع تاجر .. فهل أنت فى حاجة - أيها البرهمى - ولهذا تبحث عن عمل ؟ » . فأجاب سيد هارتا : « كلا ، لست محتاجا ، ولم أكن محتاجا قط ؟ لقد جئت من السامانا الذين عشتُ معهم زمنا طويلا » .

- « إذا كنتَ قد جئت من السامانا ، فكيف لا تكون محتاجا ؟ أليس السامانـا قومـا لا يملكون شيئـا على الإطلاق ؟ » .

قال سيد هارتا : « أنا لا أملك شيئا ، إن كان هذا هو ما تعنيه . ليس لدى أملاك بكل تأكيد ، ولكن بإرادتى الحرة .. ولهذا لا أعد محتاجا » .

– « ولكن كيف ستعيش إذا كنت لا تملك شيئا ؟ » .

– لم أفكر فى هذا قط يا سيدى ، وقد عشت بلا ممتلكات ما يقرب من ثلاثة أعوام ، ولم أفكر أبدا بم سأعيش » .

– « إذن فقد عشت على ما يمتلكه الآخرون » .

– فى الظاهر . والتاجر يعيش أيضا على ما يمتلكه الآخرون » .

– « أحسنت القول ، ولكنه لا يأخذ من الآخرين دون مقابل . إنه يعطى بضائعه نظير ما يأخذ » .

– « هذا ما تبدو عليه الأشياء .. الكل يأخذ ، والكل يعطى ، والحياة تسير على هذا النحو » .

– آه ، ولكن إذا كنت لاتمتلك شيئا تعطيه ؟ » .

– كل إنسان يُعطى ما لديه : الجندى يعطى القوة ، والتاجر السلع ، والمعلم التعليم ، والزارع الأرز ، والصياد السمك » .

– « تماما .. وماذا تستطيع أن تعطى ؟ ماذا تعلمت بحيث يمكن أن تعطيه ؟ » .

– « أستطيع أن أفكر وأنتظر وأصوم » .

– « أهذا كل شىء ؟ » .

- « أعتقد أن هذا هو كل شيء » .
- « وما نفع هذا . الصيام - مثلا - أى نفع فيه ؟ » .
- « إنه ذو قيمة عظيمة يا سيدى ، فإن لم يجد المرء شيئا يأكله ، فإن أذكى ما يستطيع أن يفعله هو أن يصوم . فإذا لم يكن سيد هارتا قد تعلم مثلا - أن يصوم ، لكان عليه أن يبحث عن عمل اليوم سواء معك أو مع غيرك . ذلك أن الجوع سوف يدفعه إلى ذلك . ولكن سيدهارتا يستطيع الآن أن ينتظر فى هدوء ، إنه ليس نافد الصبر عجولا ، وليس محتاجا ، ويستطيع أن يصد عنه غائلة الجوع زمنا طويلا ، وأن يضحك منها .. ومن ثم كان الصوم نافعا يا سيدى » .
- « أنت على حق يا سامانى .. انتظر لحظة » .

وخرج « كاماسوامى » وعاد حاملا لفافة من الورق ، وناولها لضيفه ثم سأله : « أتستطيع أن تقرأ هذا ؟ » .

فنظر سيد هارتا إلى المخطوطة وكان مكتوبا فيها اتفاقية بيع . وشرع يقرأ محتوياتها .

قال كاماسوامى : « رائع ! وهل تكتب لى شيئا على هذه الورقة ؟ » .

وأعطاه ورقة وريشة ، فكتب سيد هارتا شيئا ، وأعاد الورقة .

وقرأ كاماسوامى : « الكتابة أمر حسن ، والتفكير أحسن

منها ، والذكاء حسن والصبر أحسن منه » .

فأثنى عليه التاجر قائلا : « أنت تكتب كتابة جيدة جدا ، ومازالت أمامنا أمور كثيرة للمناقشة ، ولكنى أدعوك اليوم لتكون ضيفا علىّ ، وأن تقيم فى منزلى » .

وشكره سيد هارتا ، وقبل ضيافته . إنه يعيش الآن فى منزل التاجر . وأُحْضرت إليه الثياب والأحذية . وكان الخادم يعد له الحمام يوميا . وكانت الوجبات الفخمة تقدم له مرتين فى اليوم الواحد . بيد أن سيد هارتا لم يكن يتناول غير وجبة واحدة يوميا ، ولم يكن يأكل اللحم ، أو يشرب النبيذ . وتحدث إليه « كاماسوامى » عن أعماله ، وأطلعه على بضائعه ، ومخازنه ، وحساباته . وتعلم سيد هارتا أشياء عديدة . كان ينصت كثيرا ، ويتحدث قليلا . وكان يتذكر كلمات كماله دائما ، فلم يذل نفسه للتاجر قط ، بل أجبره على أن يعامله معاملة الند ، بل أكثر من الند فى كثير من الأحيان ، وكان « كاماسوامى » يصرف أعماله فى اهتمام وحماسة ، غير أن سيد هارتا كان ينظر إلى الأمر كله على أنه لعب وهو يحاول أن يحفظ قواعده جيدا ، ولكن دون أن يحرك فى قلبه شَعْرةً .

ولم ينقض زمن طويل على وجوده فى منزل « كاماسوامى » حتى كان يشارك السيد أعماله . ولم ينقطع يوما عن زيارة كماله الفاتنة فى الساعة التى تدعوه إليها فى ثياب أنيقة وحذاء فاخر .

وسرعان ما قدَّم إليها الهدايا أيضا . وتعلم أشياء كثيرة من شفتيها الحكيمتين الورديتين . وكان لا يزال صبيا فيما يتعلق بالحب ، وإن كان ميالا إلى الغوص فى أعماقه دون تبصر أو شبع ، وتعلم منها أن المرء لا يمكن أن يستمتع باللذة دون أن يعطيها ، وأن كل نأمة ، وكل ضمة ، وكل لمسة ، وكل نظرة ، وكل جزء فى الجسم ، له أسراره التى يمكن أن تمنح اللذة لمن يستطيع أن يفهم .

وعلمته أنه لا ينبغى على العشاق أن يفترقا أحدهما عن الآخر بعد إشباع حبهما دون إعجاب أحدهما بالآخر ، دون سيطرة وخضوع فى آن واحد ، وذلك حتى لا ينشأ شعور بالشبع أو الحرمان ، أو ذلك الشعور البشع بإساءة الاستعمال له أو عليه . وقضى ساعات مدهشة مع هذه الغانية الأريبة الحسناء فأصبح تلميذها وعاشقها وصديقها ، وهنا ، مع كماله ، لا مع أعمال كاماسوامى – اتخذت حياته الراهنة قيمتها ومعناها .

وكان التاجر يحيل إليه كتابة الخطابات والطلبات الهامة وإعتاد الرجوع إليه فى جميع المسائل الهامة . وسرعان ما فطن إلى أن سيد هارتا لا يفهم إلا قليلا عن الأرز والصوف وعن الشحن والتجارة ، ولكنه يتميز بلباقة نادرة .. ويتفوق عليه فى الهدوء والاتزان ، وفى فن الإصغاء ، وإحداث انطباع طيب فى نفوس الغرباء . قال ذات مرة لصديق له : « هذا البرهمى ليس

تاجرا حقيقيا ، ولن يكون أبدا ، فهو لا يستغرق كلية فى التجارة ، ولكنه حائز على سر أولئك الناس الذين يأتى إليهم النجاح من تلقاء نفسه ، سواء كان ذلك لأنه وُلِد تحت نجْم حسن الطالع ، أو كان سحرا ، أو لأنه تعلمه من السامانا .. إذ يبدو عليه دائما أنه يلعب بالتجارة ، فهى لا تترك فيه أى تأثير ، ولا تسيطر عليه أبدا ، وهو لا يخشى الفشل قط ، ولا تعنيه الخسارة على الإطلاق » .

ونصح الصديق التاجر قائلا : « امنحه ثلث أرباح الصفقات التى يعقدها لك ، ولكن دعه أيضا يقاسمك نفس النسبة فى الخسائر إذا وقع منها شىء . وبهذه الطريقة يمكن أن يصير أشد حماسة » .

واتبع « كاماسوامى » نصيحة صديقه . غير أن سيد هارتا لم يهتم كثيرا .. فإذا صادف ربحًا ، تقبله هادئا ، وإن أصابته خسارة ضحك وقال : « فليكن ، سارت الصفقة على غيرما يرام » .

ويبدو فى الواقع أنه غير مكترث بالتجارة . فذات مرة سافر إلى قرية ليبتاع محصولا كبيرا من الأرز . وعندما وصل إلى هناك كان الأرز قد بيع فعلا إلى تاجر آخر . ومع ذلك فقد مكث سيد هارتا عدة أيام فى تلك القرية يسرى عن الفلاحين ويعطى نقودا للأطفال ، وشارك فى حفل زفاف ، وعاد من الرحلة راضيا تمام

الرضى ، ولامه « كاماسوامى » لأنه لم يعد فى الحال ، ولأنه بدد الوقت والمال . فأجابه سيد هارتا : « لا تلمنى أيها الصديق العزيز .. إن شيئا لم يتحقق قط باللوم والتأنيب ، وإذا كانت قد حلت بنا خسارة ، فأنا سأتحملها . إننى راض جدا عن هذه الرحلة ، فقد تعرفت على كثير من الناس ، وصادقت رجلا برهميا ، وجلس الأطفال على ركبتى ، وأرانى الفلاحون حقولهم .. ولم يعاملنى أحد بوصفى تاجرا » .

واقتنع كاماسوامى محتجا « هذا كله بديع .. ولكنك تاجر فى واقع الأمر ، أم تراك سافرت لمتعتك الخاصة ؟ » .

فضحك سيد هارتا : « بكل تأكيد لقد سافرت من أجل متعتى الخاصة ، ولم لا ؟ لقد تعرفت على أناس ، وأحياء جدد ، واستمتعت بالصداقة والثقة ، ولو كنت « كاماسوامى » لرحلت فى الحال ، يلازمنى شعور بالضيق بعد أن رأيت أننى عاجز عن الشراء ، وحينئذ سيكون الوقت والمال قد ضاعا حقا . ولكننى أنفقت عددا من الأيام الجميلة .. وتعلمت كثيرا ، واستمتعت كثيرا ، ولم أسبب أذى لنفسى أو للآخرين ، سواء بالمضايقة أو التسرع . فإذا ذهبت إلى هناك مرة أخرى ، ربما لشراء محصول آخر ، أو لأى غرض آخر ، فسوف يستقبلنى أشخاص أصدقاء ، وسأكون مسرورا لأننى لم أُظْهِر فى المرة السابقة أى تسرع ، أو استياء . على أى حال فليكن ما كان ، ولا تضر

نفسك باللوم ، وإذا جاء اليوم الذى تقول فيه لنفسك ، إن هذا
السيد هارتا يؤذينى ، فقلها كلمة واحدة ، وسيمضى سيد هارتا
لحال سبيله .. فحتى ذلك الحين دعنا نكن أصدقاء مخلصين » .

وذهبت محاولات التاجر لاقناع سيد هارتا بأنه يأكل من
خبزه – خبز كاماسوامى – ذهبت أيضا إدراج الرياح ، ذلك أن
سيد هارتا كان يأكل عيش نفسه . وفضلا عن ذلك ، فإنهم كانوا
جميعا يأكلون من عيش الآخرين ، من عيش الجميع . ولم يعبأ
سيد هارتا قط بمتاعب كاماسوامى . وقد كانت لكاماسوامى
متاعب كثيرة . فإذا دلت النُذُر على فشل إحدى الصفقات ،
وإذا ضاعت طلبية من البضائع ، وإذا ظهر أن مدينا لا يستطيع
سداد دينه ، لم يستطع كاماسوامى أبدا إقناع زميله بأن الكلمات
الغاضبة المهينة تفيد شيئا ، أو أن تكوين الغضون على الجبين
والأرق بالليل تنفع صاحبها أى نفع . وعندما ذكره كاماسوامى
ذات مرة بأنه تعلم منه كل شىء أجابه : « لا تؤلف هذه
النكات . لقد تعلمت منك كم تتكلف سلة من السمك ، وكم
تكون الفائدة التى يطالب بها المرء إذا أقرض مالا . هذه هى
معرفتك . ولكننى لم أتعلم منك كيف أفكر يا عزيزى
كاماسوامى ، ومن الأفضل أن تتعلم ذلك منى » .

ولم يكن قلبه فى التجارة حقا . كل ما فيها من فائدة أنها
تجلب إليه المال من أجل كماله . وكانت تجلب إليه أكثر

مما يحتاج إليه فى واقع الأمر . وفضلا عن ذلك ، كان تعاطف سيد هارتا وحبه للاستطلاع ينصبان على الناس وحدهم .. الناس الذين كان كدحهم ، ومتاعبهم ومسراتهم وحماقاتهم ، مجهولة بالنسبة إليه ، بل أكثر بعدا عنه من القمر . ومع أنه كان يجد من اليسير عليه أن يتحدث إلى كل إنسان وأن يتعلم من كل إنسان ، إلا أنه كان فى وعى بهذه الحقيقة : وهى أن ثمة شيئا يفصل بينه وبينهم .. وهذا راجع إلى أنه كان من السامانا . كان يرى الناس يعيشون بطريقة صبيانية ، أو حيوانية ، وهى طريقة يحبها ويحتقرها فى آن معا . كان يراهم يكدحون ويعانون ويشيبون من أشياء لا تستحق كل هذا الثمن - من المال والمسرات الصغيرة والأمجاد التافهة ، كان يراهم يتلاومون ويسيئون بعضهم إلى البعض الآخر ، ورآهم ينوحون من آلام يضحك منها السامانا ، ويعانون ضروبا من الحرمان لا يشعر بها السامانا .

وكان يقبل كل ما يحمله الناس إليه : التاجر الذى يحضر إليه الكتان ليبيعه يلقى كل ترحيب ، المدين الذى يسأل عن قرض ، يلقى كل ترحيب ؛ الشحاذ الذى يمكث ساعة ليروى له قصة فقره ، وإن لم يكن قد كابد من الفقر ما يكابده السامانا يلقى كل ترحيب . ولم يكن يعامل التاجر الغنى الغريب معاملة تختلف عن معاملته للخادم الذى يلحق له أو للباعة المتجولين الذين يبتاع منهم الموز . ويتظاهر بالغفلة وهم يسرقون منه العملات

الصغيرة . فإذا حدث أن جاء إليه كاماسوامى ، وشكا إليه متاعبه ، أو وجه إليه اللوم والتأنيب على صفقة من الصفقات ، أصغى إليه فى اهتمام وانتباه ، وتعجب منه محاولا أن يفهمه . وربما تنازل له قليلا إذا بدأ له ذلك ضروريا ، ثم انصرف عنه إلى الشخص التالى الذى يريده . وكان كثير من الناس يأتون إليه للمتاجرة معه ، أو لخداعه ، أو للاستماع إليه ، أو لاستدرار عطفه ، والإنصات إلى نصائحه . فكان يسدى نصائحه ، ويتعاطف مع الناس ويقدم الهدايا ويسمح للآخرين بخداعه قليلا . فكان يشغل أفكاره بهذه اللعبة كلها وبالانفعال الذى يلعبها به الناس جميعا ، بنفس القدر الذى كان يشغل به أفكاره من قبل بالاله وبراهما .

ومن حين إلى آخر، كان يسمع فى أعماق نفسه صوتا عذبا رقيقا يذكره تذكيرا هادئا ويشكو شكوى هادئة حتى لا يكاد يسمعه ، ثم لم يلبث أن رأى فجأة أنه يحيا حياة غريبة ، وأنه يأتى أمورا كثيرة لا تعدو أن تكون لعبا ، وأنه يمرح أشد المرح ، ويشعر بالسرور أحيانا . بيد أن السعادة الحقيقة كانت تنساب بعيدا عنه دون أن تمسه . وكاللاعب الذى يلعب بكرته ، كان يلعب هو بالتجارة ومع الناس الذين يحيطون به ، يراقبهم ويستمد منهم التسلية ، ولكنه لم يكن معهم بقلبه أو بطبيعته الحقة . كانت ذاته الحقيقية تتجول فى مكان آخر ، بعيدا جدا ،

تتجول دون انقطاع ودون أن يراها أحد .. ودون أن تكون لها أدنى صلة بحياته .

وكان الخوف يستولى عليه أحيانا من هذه الأفكار ، فيود لو يستطيع أن يشارك الناس أيضا فى أمورهم اليومية الصبيانية بشىء من الحرارة ، وأن يشاطرهم ما يخوضون فيه بصدق ، وأن يتمتع ويعيش حياتهم بدلا من أن يظل فى مكانه كالمتفرج .

وكان يزور كماله الجميلة بانتظام . وتعلم فن الحب الذى يكون فيه الأخذ والعطاء شيئا واحدا أكثر من أى فن آخر . وكان يتحدث إليها ، ويتعلم منها وينصحها وينتصح منها ، وكانت تفهمه أكثر مما فهمه « جوفيندا » ، إذ كانت أقرب شبها إليه .

وذات مرة قال لها : « أنت تشبهيننى ، وأنت تختلفين عن سواك من الناس . أنت كماله لا شىء آخر ، وفى أعماق نفسك سَكَنٌ ومحراب تستطعين الانسحاب إليهما فى أى وقت لتكونى ذاتك ، مثلما أستطيع أنا . قلائل من الناس الذين يملكون هذه القدرة ، ومع ذلك فكل إنسان يستطيع أن تكون له » .

فقالت كماله : « ليس كل الناس أذكياء » .

قال سيد هارتا : « إنها مقدرة لا صلة لها بالذكاء يا كماله .. كاماسوامى لا يقل عنى ذكاء ، ولكنه لا يملك مثل هذا المحراب ، وآخرون يملكونه وإن كانوا مجرد أطفال فى إدراكهم ، إن معظم الناس يا كماله أشبه بورقة شجر ساقطة تلف وتدور فى

الهواء ، ثم ترف وتهوى إلى الأرض ولكن هناك فئة قليلة أشبه بالنجوم التى تسلك مسارا محددا ، فلا رياح تصل إليهم ، وفى أنفسهم يستقر المرشد والطريق . وبين الحكماء جميعا الذين عرفتهم ، وقد عرفت منهم الكثير ، كان هناك واحد بلغ الكمال فى هذا المجال ، وليس فى إمكانى أن أنساه أبدا . إنه « جوتاما » المستنير الذى يبشر بهذه الدعوة . وهناك آلاف من الشبان يستمعون إلى تعاليمه كل يوم ، ويتبعون تعليماته كل ساعة ، ولكنهم جميعا أوراق متهاوية لا يملكون الحكمة والمرشد داخل أنفسهم » .

ونظرت إليه كماله ، وابتسمت : « ها أنت ذا تتحدث عنه مرة أخرى ، وها أنت تعود لأفكار السامانا » .

فلم يجب سيد هارتا . ولعبا لعبة الحب ، واحدة من اللعب الثلاثين أو .. الأربعين المختلفة التى تعرفها كماله . كان جسدها لينا كالنمر أو كقوس الصياد ، ومن تعلم منها فن الحب ، عرف كثيرا من المتع وكثيرا من الأسرار . وظلت تلعب مع سيد هارتا وقتا طويلا ، تصده ثم تجتاحه وتستولى عليه ، وهى مسرورة ببراعتها حتى غلبته ، فرقد إلى جانبها منهوك القوى .

وانحنت عليه الغانية وحدقت طويلا فى وجهه ، وفى عينيه اللتين غشيهما التعب . قالت وهى ممعنة فى التفكير : « أنت أفضل عاشق عرفته ، فأنت أقوى من الآخرين ، وأكثر ليونة ،

وأسرع استجابة ، لقد أخذت عنى الفن جيدا . سيد هارتا : عندما أصبح أكبر سنا ، سيكون لى ولد منك ذات يوم ، ومع ذلك فقد ظللت سامانيا يا عزيزى ، إنك لا تحبنى حقا ، أنت لا تحب أحدا ، أليس كذلك ؟ » .

قال سيد هارتا متعبا : « ربما .. أنا مثلك فأنت لا تستطعين الحب كذلك ، وإلا فكيف يمكن أن تمارسى الحب بوصفه فنا ؟ لعل الناس الذين هم على شاكلتنا لا يستطيعون الحب . بسطاء الناس يستطيعون ذلك - وهذا هو سرهم » .

الفصل السابع

سانسارا

عاش سيد هارتا حياة الدنيا زمناً طويلاً دون أن ينتمى إليها . كانت حواسه التى أماتها فى أعوام السامانا العامرة بالزهد والتقشف قد استيقظت من جديد ، فذاق حياة البذخ والشهوة والقوة ، ولكنه ظل ردحا طويلا سامانيا فى صميم قلبه . وأدركت كماله بذكائها الفطرى هذه الحقيقة ، فقد كانت حياته موجهةً دائما بفن التفكير والانتصار والصوم ، وكان الناس المتكالبون على الدنيا .. غمار الناس ، ما برحوا غرباء عنه مثلما كان غريبا عنهم .

ومضت الاعوام .. ولما كانت مُغَلَّفة بظروف مريحة ، لم يكد سيد هارتا يفطن إلى مرورها . لقد أصبح الآن من سراة القوم ، يملك بيتا خاصا له ، وله خدم عاكفون على خدمته ، وحديقه فى ضواحى المدينة تطل على النهر ، وكان الناس يحبونه ويأتون إليه كلما أعوزهم المال أو النصح . ومع ذلك لم يكن له – باستثناء

كماله - أى أصدقاء مقربين .

أما تلك اليقظة المجيدة المتسامية التى عاناها فى شبابه - تلك الأيام التى أعقبت موعظة جوتاما ، وبعد افتراقه عن جوفيندا ، وأما ذلك التوقع المتحفز وتلك الكبرياء التى دفعته إلى الوقوف وحيدا بلا أساتذة أو مذاهب ، وأما ذلك التأهب المتلهف للإصغاء إلى الصوت الإلهى فى أعماق فؤاده - أما هذا كله فقد استحال رويدا رويدا إلى ذكرى - حتى تلاشى . وذلك النبع المقدس الذى كان قريبا منه ذات يوم ، والذى أنشد بصوت عال فى داخله ذات مرة ، إنما يهمس الآن خافتا من مكان بعيد . ولكنه ما برح يحتفظ على كل حال بكثير مما تعلمه من السامانا ومما تعلمه من جوتاما ، ومن أبيه ، ومن البراهمة : حياة معتدلة ، ومتعة فى التفكير ، وساعات طويلة من التأمل ، ومعرفة خفية للذات الأبدية التى ليست جسدا وليست شعورا .. احتفظ بالكثير من هذه الأشياء ، وهناك أشياء أخرى ساخت وغطاها التراب .

وكما تظل عجلة صانع الآلات تدور زمنا طويلا بعد أن بدأت فى الحركة ، ثم تبطئ فى سيرها وتتوقف ، كذلك ظلت عجلة الناسك ، عجلة التفكير ، عجلة التميز تدور زمنا طويلا فى نفس سيد هارتا . أنها فتئت تدور ولكن فى بطء وتردد ، حتى أوشكت أن تتوقف . وكما تتسرب الرطوبة متباطئة إلى جذع الشجرة

المحتضرة حتى تملأها وتفسدها تماما ، كذلك تسللت الدنيا والارتخاء إلى روح سيد هارتا .. وفى بطء امتلأت بهما روحه فأثقلتاها وأرهقتاها وأسلمتاها للنوم . غير أن حواسه ظلت مستيقظة من ناحية أخرى ، بل أشد استيقاظا ، واكتسبت نصيبا كبيرا من المعرفة وحظا وفيرا من التجربة .

تعلم سيد هارتا كيف يعقد الصفقات التجارية ، وكيف يستحوذ على مشاعر الناس ، وكيف يسرِّى عن نفسه مع النساء ، تعلم ارتداء الثياب الفاخرة وإصدار الأوامر إلى الخدم ، والاستحمام فى مياه معطرة . وتعلم أن يأكل الأطعمة اللذيذة التى أُعِدَّت بعناية ، وكذلك الأسماك واللحوم والطيور والتوابل والمشهيات وأن يشرب النبيذ الذى جعله كسولا كثير النسيان . وتعلم أن يلعب النرد والشطرنج ، وأن يتفرج على الراقصات ويُحْمَل على المحفات ويرقد فى فراش وثير . ولكنه كان يشعر دائما أنه يختلف عن الآخرين ، وأنه أعلى منهم . وكان يراقبهم دائما فى شىء من الاحتقار ، بشىء من الإزدراء ألساخر قليلا ، بذلك الترفع الذى يشعر به السامانى دائما إزاء الأشخاص الدنيويين . فإذا انزعج كاماسوامى ، أو أحس أنه أهين أو أضطربت أعماله التجارية ، كان سيد هارتا ينظر إليه ساخرا . بيد أن سخريته وشعوره بالتفوق أخذ يقلان شيئا فشيئا دون أن يلحظ ذلك مع مرور المواسم والأعوام . ذلك أن سيد

هارتا نفسه اكتسب تدريجيا مع نمو ثرواته - بعضاً من سمات غمار الناس ، وشيئا من صبيانيتهم وقلقهم . ومع ذلك فقد كان يحسدهم . وكلما صار مثلهم ازداد حسده لهم . كان يحسدهم على الشيء الوحيد الذى ينقصه وهم يملكونه : شعور الأهمية الذى عاشوا به حيواتهم وعمق مسراتهم وأحزانهم والسعادة القلقة ، وإن تكن عذبة - التى تتسم بها قدرتهم المستمرة على الحب .

كان هؤلاء الناس فى حالة حب دائمة لأنفسهم ولأطفالهم وللمجد أو المال مع المشاريع أو الأمل . بيد أن هذه الألوان من الحب لم يتعلمها منهم ، هذه المتع والحماقات الطفولية ، ولم يتعلم منهم إلا الأشياء السخيفة التى يحتقرها فحسب .

وكان يحدث فى أغلب الاحيان بعد ليلة مرحة أن يرقد فى فراشه إلى ساعة متأخرة من النهار وهو يشعر بالخمول والنصب . ولا يلبث أن يشعر بالضيق ونفاد الصبر ، عندما يضجره كاماسوامى بمتاعبه . وكان يضحك بصوت مرتفع عندما يخسر فى لعبه النرد . وكان وجهه لا يزال أذكى وألمع من وجوه الآخرين ولكنه نادرا ما يضحك.. واكتسى وجه تدريجيا بالتعبيرات التى توجد غالبا على وجوه الأثرياء - تعبيرات البطر والسقم ، والقرف ، والخمول ، وانعدام الحب . وهكذا زحف إلى نفسه ذلك السقام الروحى الذى يعنيه الأغنياء .

وكالحجاب أو كغمامة رقيقة ، استقر ضرب من السأم على

روح سيد هارتا .. بطيئا تزداد كثافته قليلا كل يوم ، وتشتد ظلمته قليلا كل شهر ، ويتثاقل قليلا عاما بعد عام . وكما يبلى الثوب الجديد مع الزمن ويحول لونه الزاهى ، وتلطخه البقع والأوساخ ، وتنسل حواشيه ، وتنحل فيه هنا وهناك المواضع ، فكذلك شاخت حياة سيد هارتا الجديدة التى بدأها بعد افتراقه عن « جوفيندا » . وعلى هذا النحو نفسه حال لونها وبهت رونقها مع مرور الأعوام ، وتراكمت عليها الغضون والبقع ، وأخذ انقشاع الوهم والغثيان المنتظرين المختبئين فى الأعماق يطلان هنا وهناك من حين لآخر . ولم يلحظ سيدهارتا شيئا من ذلك ، ولكنه لاحظ فحسب أن الصوت الداخلى المشرق الواضح الذى استيقظ فى نفسه ذات مرة والذى كان يهديه دائما فى أحرج ساعاته ، قد لزم الصمت .

لقد اقتنصته الدنيا : الشهوات والطمع والكسل ، وأخيرا تلك الرذيلة التى احتقرها وازدراها دائما على أنها أحمق الرذائل وهى حب الاقتناء . لقد أوقعت به أخيرا فى حبالها الممتلكات والمقتنيات وألوان الثراء . لم تعد لعبا ولهوا بالنسبة إليه ، بل أصبحت أغلالا وإصرا . وسلك سيد هارتا دربا غريبا ملتويا فى هذا الانحدار الأخير الوضيع عبر لعبة الميسر . فمنذ أن انقطع سيدهارتا عن أن يكون بقلبه من السامانا ، بدأ يلعب النرد مراهنا بالمال والجواهر فى اندفاع متزايد ، وهى لعبة كان يشارك

فيها من قبل مبتسما لا مباليا بوصفها عادة شائعة بين أوساط الناس . وكان لاعبا جبارا لا يجرؤ على مجارته غير القليلين نظرا لارتفاع مراهناته وتهوره .

وكان يقامر نتيجة لحاجة تخامر قلبه ، إذ يستمد متعة عميقة فى تبديد تلك الأموال اللعينة وبعثرتها . فما من طريقة أخرى يستطيع أن يعلن بها فى وضوح واستهزاء عن احتقاره للثراء .. ذلك الإله الزائف الذى يعبده رجال الأعمال . وهكذا كان يقامر بمبالغ ضخمة غير مبق على شىء مبغضا نفسه ، ساخرا منها ، يربح الآلاف ويلقى بالآلاف ويخسر الأموال والجواهر ، ويخسر منزلا ريفيا كان يملكه . ويربح مرة أخرى ويخسر ثانية .

كان يحب هذا القلق .. هذا القلق الرهيب المستبد الذى كان يعانيه أثناء لعبة النرد ، أثناء لحظة التعلق فى المراهنات الكبيرة . أحب هذا الشعور وسعى إلى تجديده باستمرار ، وإلى مضاعفته وتنشيطه . ففى هذا الشعور وحده كان يجد نوعا من السعادة ، ضربا من الإثارة ، لونا من الحيوية المرتفعة وسط هذا الوجود المتخم الفاتر الماسخ . وكان يكرس نفسه بعد كل خسارة ضخمة – للحصول على ثروات جديدة ، ويجرى متلهفا وراء الصفقات ، متعجلا المدينين بالدفع لأنه يريد أن يقامر مرة أخرى ، ويريد أن يبعثر مرة أخرى ويريد أن يظهر احتقاره للثروة مرة أخرى . وأمسى سيد هارتا نافد الصبر عندما تصيبه

الخسائر ، وفقد صبره مع المدينين الذين يتلكأون فى الدفع ، ولم يعد عطوفا على المتسولين ، ولم تعد به رغبة لتقديم الهدايا والقروض إلى المساكين . وأصبح وهو الذى يْراهن بعشرة آلاف على رمية نرد واحدة وهو يضحك – أصبح أكثر تشددا ودناءة فى العمل ، وكان يحلم أحيانا بالنقود أثناء الليل ، وأينما استيقظ من هذا السحر البغيض ، وحيثما رأى وجهه منعكسا فى المرآة المعلقة على جدار حجرة نومه ، وقد شاخ وازداد قبحاً ، وكلما استولى عليه الخزى والغثيان ، هرب مرة أخرى .. هرب إلى لعبة جديدة من ألعاب المصادفة .. هرب مرتبكا إلى الشهرة ، إلى الخمر ، ومنها عائدا مرة أخرى إلى اكتساب الثروة وتكديسها . واستنفد نفسه فى هذه الحلقه الجهنمية الحمقاء ، وأصبح عجوزاً عليلاً .

وهنا تراءى له حلم أعاد إلى ذاكرته كل شيء . كان بصحبة كماله فى المساء ، فى حديقة ملذاتها الحبيبة . وكانا يجلسان تحت شجرة يتبادلان الحديث . كانت كماله تتحدث حديثا جديا . وكان الحزن والتعب يختفيان وراء كلماتها . وطلبت منه أن يتحدث إليها عن جوتاما ، لأنها لم تكن قد سمعت منه ما فيه الكفاية : أى صفاء كان فى عينيه ، أى سلام وجمال فى شفتيه ، وأى رشاقة فى ابتسامته ، وأى سلام فى تصرفاته كلها . وطفق يحدثها طويلا عن بوذا المستنير حتى تنهدت كماله وقالت : «ذات يوم ، وربما كان عاجلا – سأصبح تابعة لهذا البوذا ، وسوف

أمنحه حديقة ملذاتى،لأجد المأوى الأمين فى تعاليمه».

ولكنها كانت تغويه بعد ذلك بمفاتنها ، وتضمه أثناء لعبة الحب فى حماسة بالغة ، وفى عنف وافتراس شديدين ، وكأنما تريد أن تستقطر منه مرة أخرى آخر قطرة عذبة من هذه المتعة العابرة .

ولم يتبين سيد هارتا قط من قبل بمثل هذا الوضوح الغريب كيف ترتبط العاطفة بالموت ارتباطا وثيقا . وحينئذ كان يرقد إلى جوارها ، ووجه كماله قريب من وجهه ، ولأول مرة قرأ بوضوح تحت عينيها وبالقرب من طرفى ثغرها علامة حزينة - تجاعيد وغضون رقيقة ، علامة تذكر بالخريف وبالشيخوخة .

وقد لاحظ سيدهارتا نفسه ، وكان فى الأربعينات من عمره - شعيرات بيضاء متناثرة هنا وهناك فى شعره الأسود . وكان الارهاق مسطورا على وجه كماله الجميل ، الارهاق للاستمرار فى طريق لا ينتهى إلى غاية بهيجة .. الارهاق وبدايات الشيخوخة ، وخوف محتجب لم يذكر بعد ، وربما لم يصل بعد إلى مستوى الوعى - خوف من خريف الحياة - خوف من الشيخوخة ، خوف من الموت . وتنهد وهو يتركها بقلب مثقل بالتعاسة والخوف المستتر .

وانفق سيد هارتا الليل فى منزله بين الخمر والراقصات ، متظاهرا بأنه متفوق على رفاقه ، وهو لم يعد ذلك حقا . وكان قد احتسى كثيرا من الخمر ، فآوى إلى فراشه بعد منتصف الليل ،

متعبا ، وإن يكن مضطربا ، قانطا تكاد الدموع تفر عن عينيه .
وحاول أن ينام ، ولكن بلا جدوى كان قلبه مفعما بالتعاسة ، حتى
شعر أنه لا يستطيع الاحتمال . وكاد يختنق بشعور من الغثيان
استولى عليه كأنه نوع من الخمر مرير المذاق ، أو كلحن
موسيقى غاية فى العذوبة ، ولكنه سطحى ، أو كابتسامة
الراقصات العذبة ، أو العطر الناعم الذى يفوح من شعورهن
ونهودهن . ولكنه كان فوق هذا وذاك متسمئزا من نفسه ، ومن
شعره المعطر ، ومن رائحة الخمر التى تفوح من فمه ، ومن مظهر
جلده الأملس المترهل . وكشخص أتخم بالطعام والشراب ، ثم
تقيأ متألما ، فأحس بالراحة ، ودّ سيد هارتا القلق لو استطاع أن
يعتق نفسه بزفرة واحدة رهيبة من تلك الملذات أو العادات -
من هذه الحياة المبتذلة كلها . ولم يعالج الخمر إلا عند مطلع
النهار وعند التباشير الأولى للنشاط خارج منزله فى المدينة ،
وحينئذ استولت عليه لحظات أشبه بالنسيان . ولاحت له إمكانية
الموت . وفى خلال هذا الوقت ، عَرضَت له رؤيا .

كانت كماله تحتفظ بطائر صغير مغرد نادر الوجود ، فى قفص
صغير من الذهب . وعن هذا الطائر دارت رؤياه . فهذا الطائر
الذى كان يغرد عادة فى الصباح كف عن التغريد ، وأخلد إلى
الصمت فلما أدهشه ذلك ، أقبل على القفص ونظر إلى داخله .
كان الطائر ميتا ، وقد رقد متصلبا على الأرض . وأخرجه بسيد

هارتا ، وأمسك به لحظة فى راحته ثم ألقى به بعيدا فى الطريق . وفى هذه اللحظة نفسها استولى عليه الرعب ، وأخذ قلبه يخفق خفقانا أليما متواصلا ، وكأنه ألقى مع هذا الطائر الميت كل ما هو خيِّر وقيِّم فى نفسه .

وما كاد يفيق من حلمه ، حتى طغى عليه شعور بحزن عميق . فبدا له أن أضاع حياته على نحو تافه لا قيمة له ، ولم يستبق شيئا ذا أهمية حيوية شيئا ثمينا جديرا بالاحتفاظ ، ووقف وحيدا ، كرجل تحطمت سفينته على الشاطئ .

وذهب سيد هارتا حزينا إلى روض من رياض المتعة التى يمتلكها. فأغلق أبوابه وجلس تحت شجرة من أشجار المانجو ، وهو يشعر بالفزع والموت فى قلبه ، واستجمع شتات أفكاره شيئا فشيئا ، وأخذ يستعرض على صفحة ذهنه حياته كلها ابتداء من أيامه المبكرة التى يستطيع أن يتذكرها . متى كان سعيدا حقا ؟ متى أحس بالفرحه حقا ؟ أجل أحس بذلك عدة مرات ، ذاقه فى أيام الصبا عندما فاز بثناء البراهمة عليه ، وحينما تفوق على أقرانه ، وعندما برز فى إنشاد الأشعار المقدسة ، وفى مناقشة العلماء ، وعندما شارك فى تقديم القرابين . ثم أحس فى قلبه بصوت يقول له : « أمامك طريق عليك أن تسلكه .. الآلهة فى انتظارك ». وتذكر أيضا عندما كان شابا يدفعه هدفه أن يحلق

باستمرار إلى الدخول ثم إلى الخروج من جمهرة الباحثين من أمثاله ، عندما جاهد جهادا شاقا ليفهم تعاليم البراهمة ، عندما كانت كل معرفة جديدة يكتسبها يتولد عنها ظمأ جديد . ثم وسط هذا التعطش ووسط جهوده يفكر مرة أخرى : « امض قدما إلى الأمام ، قدما إلى الأمام ، هذا هو سبيلك » . سمع هذا الصوت عندما هجر بيته ، وآثر حياة السامانا ، وسمعه مرة أخرى عندما انفصل عن السامانا وذهب إلى « الكامل » – بوذا – وسمعه أيضا عندما تركه من أجل المجهول . كم انقضى من الوقت منذ أن استمع إلى هذا الصوت ، أو منذ أن حلّق صاعدا إلى آمال أخرى ؟ كم كان سبيله مسطّحا مقفرا موحشا ! كم أنفق من الأعوام الطوال دون أن يكون له هدف سامق ، دون أى ظمأ ، دون أية نشوة، قانعا بالملذات الصغيرة ، دون أن يرضى حقا ! لقد حاول – دون أن يفطن لذلك – واشتاق طيلة تلك الأعوام أن يكون مثل هؤلاء الناس جميعا ، مثل أولئك الأطفال ، ومع ذلك كانت حياته أتعس وأفقر كثيرا من حياتهم ، ذلك لأن أهدافهم لم تكن أهدافه ، وأحزانهم لم تكن أحزانه ، هذا العالم كله الذى يعيش فيه أناس كاما سوامى لم يكن غير مباراة بالنسبة إليه ، رقصة ، ملهاة يتفرج عليها المرء . كماله وحدها هى التى كانت عزيزة عليه ، ذات قيمة بالنسبة إليه ، ولكن أما زالت كذلك ؟ أمازال فى حاجة إليها – وهل مازالت فى

حاجة إليه ؟ ألا يلعبان لعبة لا نهاية لها ؟ أمن الضرورى أن يعيش لهذه اللعبة ؟

كلا ، هذه اللعبة تُدْعى « سانسارا » لُعبة للأطفال ، لعبة يستمتع بها المرء إذا لعبها مرة .. مرتين .. عشر مرات – ولكن ، أتستحق أن يلعبها المرء باستمرار ؟

وهنا أدرك سيد هارتا أن اللعبة قد انتهت ، وأنه لم يعد فى استطاعته أن يلعبها بعد الآن . سرت رعدة فى بدنه ، وأحس كأن شيئا قد مات .

وجلس طيلة ذلك اليوم تحت شجرة المانجو يفكر فى أبيه ، ويفكر فى جوفيندا ، ويفكر فى جوتاما . هل ترك هذا كله ليصبح كاما سوامى ؟

جلس هناك حتى هبط الليل . وعندما رفع عينيه وأبصر النجوم ، قال فى نفسه : هاأنذا أجلس تحت شجرتى ، وفى روض متعتى . وابتسم قليلا . أكان من الضرورى ، أكان من الصواب ، ألم يكن من الحمق أن يملك شجرة مانجو وروضة ؟

لقد انتهى ذلك كله من نفسه . مات هذا أيضا فى نفسه ، ونهض مودِّعا شجرة المانجو وروض المتعة . ولما لم يكن قد تناول أى طعام ذلك اليوم ، فقد أحس بجوع شديد . وخطر له منزله فى المدينة وحجرته وسريره ، والمائدة الحافلة بأنواع الطعام . فابتسم متعبا ، وأنغض رأسه ، وقال وداعا لهذه الأشياء جميعا .

وفى هذه الليلة نفسها ، غادر سيد هارتا الحديقة والمدينة إلى غير رجعة . وحاول كاما سوامى زمنا طويلا العثور عليه ، معتقدا أنه وقع فى أيدى اللصوص . أما كماله ، فلم تحاول البحث عنه ، ولم تصبها الدهشة عندما علمت أن سيد هارتا قد اختفى .

ألم تتوقع هذا دائما ؟ أليس هو من السامانا ، بلا بيت ، مجرد مهاجر ؟ لقد أحست بذلك أكثر من أى وقت مضى فى لقائهما الأخير ، وفى وسط عذابها لخسارته،ابتهجت لأنها ضمته تلك الضمة العنيفة إلى قلبها فى تلك المناسبة الأخيرة ، ولأنها شعرت بأنه امتلكها امتلاكا تاما ، وسيطر عليها تمام السيطرة .

وعندما تناهت إليها الأنباء الأولى عن اختفاء سيد هارتا ، سارت إلى النافذة التى تحتفظ عندها بطائر مغرد نادر فى قفص من ذهب .

وفتحت باب القفص وأخرجت الطائر وأطلقت سراحه .. وظلت تتابع الطائر المختفى برهة بناظريها . ومنذ ذلك اليوم ، انقطعت عن استقبال الزوار ، وأغلقت عليها أبواب منزلها . واكتشفت بعد فترة من الزمن أنها تحمل طفل نتيجة لاجتماعها الأخير بسيد هارتا .

الفصل الثامن

على ضفاف النهر

أخذ سيد هارتا يتجول فى الغابة بعيدا عن المدينة وهو لا يعلم سوى شىء واحد هو أنه لا يستطيع الرجوع ، وأن الحياة التى عاشها تلك السنين الطوال قد انقضت بعد أن ذاقها واستنزفها إلى درجة الغثيان . لقد مات الطائر الغرِّيد . لقد كان موته الذى لاحت له رؤياه هو الطائر الذى يعشش فى قلبه . كانت الدنيا قد أوقعته فى حبائلها فلا يستطيع منها فكاكا . وكان الغثيان والموت يحاصرانه من كل جانب ، وكأنه إسفنجة تمتص الماء حتى الامتلاء . كان مُفْعما بالسأم والتعاسة والموت ، ولم يعد فى العالم شىء يجتذبه ، أو يمنحه السرور والعزاء . كان يصبو مشتاقا إلى النسيان .. وإلى السكينة وإلى الموت . لو أن ومضة من البرق صعقته ، لو أن فهداً هجم عليه والتهمه ، لو أن هناك نوعا من الخمر أو السم يمنحه النسيان ويجعله ينسى ، ويجعله ينام دون أن يصحو أبدا ! أكان هناك نوع من القذارة لم يلطخ به نفسه ،

أو ضرب من الألم والحماقة لم يرتكبه ، أو أى دنس لم يلوث به روحه ، ولم يكن هو وحده مسئولا عنه ؟ أما زال من الممكن أن يعيش ؟ أمن الممكن أن يلتقط أنفاسه مرة بعد أخرى ، وأن يخرجها ، وأن يشعر بالجوع وأن يأكل مرة أخرى ، وينام ويضاجع النساء ؟ ألم تستنفد هذه الدورة وتنتهى بالنسبة إليه ؟

وكان سيد هارتا قد بلغ النهر الكبير الذى يشق الغابة . نفس النهر الذى عبر به الملاّح عندما كان لا يزال شابا ، قادما من قرية جوتاما . وتوقف إزاء النهر ، ولبث مترددا على شاطئه . كان التعب والجوع قد نالا منه كل منال . ولماذا يوغل فى الغابة أكثر من ذلك ؟ وإلى أين .. ولأى غرض .. لم تعد لديه غاية .. ولم يبق غير شوق عميق موجع إلى أن ينفض عن روحه هذا الحلم المشوش كله ، وأن يبصق هذه الخمر الفاسدة ، وأن يضع حدا لهذه الحياة المرة الأليمة .

وكانت هناك شجرة على ضفة النهر .. شجرة جوز الهند ، فمال سيد هارتا عليها ، وطوق جذعها بذراعيه ، ونظر إلى المياه الخضراء التى تجرى من تحته. نظر إلى أسفل . فملأته تماما رغبة فى أن يدع نفسه يهوى إلى الماء ليبتلعه ، وعكس الهواء البارد فى الماء ذلك الخواء الرهيب فى روحه .. أجل إنه شارف النهاية ، ولم يبق له إلا أن يمحو نفسه ، وأن يحطم الهيكل الفاشل الذى تتألف منه حياته ، وأن يقذف به بعيدا ، ولتستهزئ به الآلهة .

هذه هى الفعلة التى يتشوّف إلى ارتكابها : أن يحطم الشكل الذى يمقته . ألا ليت الأسماك تبتلعه ، هذا الكلب الذى هو سيد هارتا ، هذا الرجل المجنون ، هذا الجسد الفاسد العفن ، هذه الروح البليدة التى أساء استعمالها . ألا ليت الأسماك والتماسيح تلتهمه ، وليت الشياطين تمزقه إربا إربا ..

وتفرس فى النهر بوجه شائه ، فأبصر وجهه منعكسا فى المياه ، فبصق عليه ، وسحب ذراعه من جذع الشجرة ، واستدار قليلا حتى يستطيع أن يسقط رأسه فى المياه ليختفى فى النهاية تحتها .. فانحنى مغمض العينين صوب الموت .

وحينئذ تناهى إليه من مكان ناء من روحه .. من ماضى حياته المتعبة .. تناهى إليه صوت . كان مؤلفاً من كلمة واحدة من مقطع واحد . همس به إلى نفسه دون تفكير أنه البداية القديمة .. والنهاية لكل الصلوات البرهمية .. « أوم » المقدس ومعناها الواحد الكامل . أو « الكمال » . وفى هذه اللحظة عندما بلغ صوت « أوم » أذنْى سيد هارتا ، استيقظت فجأة روحه الغافية ، وأدرك ما فى فعلته من جنون .

استبد بسيدهارتا رعب عميق . اذن فهذا هو ما انتهى إليه . كان ضائعا تمام الضياع ، مشتتا كل التشتت ، خاليا من كل عقل عندما سعى إلى الموت . هذه الرغبة . هذه الرغبة الطفولية كانت قد رسخت فى نفسه : أن يجد السلام بتحطيم جسده . إن

كل عذابات الأيام الأخيرة ، وكل إنقشاع للوهم ، وكل يأس .. هذا كله لم يؤثر فيه تأثير اللحظة التى وصلت فيها كلمة « أوم » إلى وعيه ، وأدرك خسته وجريمته ، « أوم » نطق بها داخل نفسه ، وكان على وعى ببراهما ، وبأن الحياة لا تفنى . وتذكر كل ما قد نسيه وكل ما هو إلهى .

غير أن ذلك لم يستغرق غير لحظة خاطفة ، ومضة . وخر سيد هارتا عند أقدام شجرة جوز الهند مغلوبا بالتعب على أمره . ووضع رأسه على جذور الشجرة ، وهو يتمتم باسم « أوم » . واستغرق فى نوم عميق . كان نومه عميقا ، خاليا من الأحلام . لم ينم مثل هذا النوم منذ زمن بعيد . وعندما استيقظ بعد ساعات طويلة ، خيل إليه أن عشرة أعوام قد انقضت ، وسمع خرير المياة العذبة ، فلم يدر أين هو أو ماذا أتى به إلى هذا المكان . ورفع بصره ، فأدهشه أن يرى الأشجار والسماء فوقه . فتذكر مكانه وكيف جاء إليه ، وأحس برغبة فى أن يبقى حيثما كان فترة طويلة . وبدأ الماضى له الآن متشحا بحجاب ، بعيدا كل البعد ، تافها كل التفاهة . لم يكن يعرف إلا أن حياته السابقة قد انتهت فى اللحظة الأولى التى عاد فيها إلى وعيه ، بدت له حياته السابقة تجسيداً بعيدا كولادة مبكرة لذاته الحاضرة، وأنها تفيض بالغثيان والتعاسة ، وأنه أراد تحطيمها . ولكنه ثاب إلى نفسه عند ضفة النهر ، تحت شجرة جوز الهند ، وعلى شفتيه كانت كلمة « أوم »

المقدسة ، وأن النوم قد غلبه حينذاك . وعندما استيقظ نظر إلى العالم نظرة إنسان جديد . وهمس لنفسه بكلمة « أوم » فى عذوبة وهى الكلمة التى نام أثناء ترديدها ، ولهذا خيِّل إليه أن نومه كله كان عبارة عن نطق طويل عميق لكلمة « أوم » ، عن تفكير فيها ، عن إندماج ونفاذ فى أوم فى «اللامسمى» ، فى الإلهى .

ما كان أروعه من رقاد ! إنه لم ينم فى حياته نوما أنعشه وجدده ، وأعاد إليه شبابه كهذا النوم . لعله قد مات حقيقة ، وربما غرق ثم ولد من جديد على هيئة أخرى . كلا لقد تعرف على نفسه .. وتعرف على يديه وقدميه ، والمكان الذى رقد فيه ، و « الذات » التى استقرت فى صدره ، سيد هارتا ، صاحب الإرادة الذاتية والفردية .. بيد أن هذا السيد هارتا قد تغير على نحو ما ، تجدَّد ، لقد نام نوما رائعا ، واستيقظ يقظة عجيبة ، وبعيدة .. طُلَّعة ..

وأنهض سيد هارتا نفسه . فأبصر ناسكا يرتدى عباءة صفراء ، حليق الرأس ، جالسا قبالته فى وضع المفكر .. فنظر إلى الرجل الذى خلت رأسه ولحيته من الشعر . ولم يطل نظره إليه ليتعرف فى هذا الناسك على جوفيندا ، صديق صباه جوفيندا الذى لجأ إلى بوذا الجليل . وكان جوفيندا قد تقدم به العمر هو أيضا ، وإن تبدَّت على وجهه سماته القديمة : اللهفة ، والولاء وحب الاستطلاع والقلق . ولكن عندما شعر جوفيندا بنظرته

إليه ، ورفع عينه لينظر إليه ، أدرك سيد هارتا أن جوفيندا لم يتعرف عليه .. ولاحت على جوفيندا إمارات السرور أن وجده مستيقظا . وكان من الواضح أنه جلس هناك طويلا ينتظر يقظته ، وإن لم يكن يعرفه .

قال سيدهارتا : « كنتُ نائما . ولكن كيف أتيت إلى هنا ؟ »

فأجاب جوفيندا : « لقد كنتَ نائما ، وليس من الخير أن تنام في مثل هذه الأماكن حيث تزحف الأفاعي ، وتتسلل الحيوانات من الغابة . أنا واحد من أتباع جوتاما الجليل .. بوذا ساكيامونى ، وأنا فى رحلة حج مع عدد من رجال الطائفة ، وأبصرت بك ترقد نائما فى مكان خطر ... ومن ثمَّ حاولت إيقاظك ، ورأيت أنك تنام نوما عميقا .. فتخلفتُ عن إخوانى ، وقعدت إلى جانبك ولكن يبدو أننى انا الذى أردت أن اراقبك قد غلبنى النعاس أنا نفسى . لقد غلبنى الإجهاد فساءت مراقبتى لك . ولكنك استيقظت الآن . ولهذا يجب أن أمضى لألحق بإخوانى .. » .

– « أشكرك أيها السامانى على حراسة نومى .. إن أتباع المستنير طيبون جدا . ولكنك تستطيع الآن أن تواصل مسيرتك . »

– « سأذهب . لعلك ترعى نفسك . »

– « أشكرك أيها السامانى . »

- وأنحنى جوفيندا وقال : « وداعا .. » .

قال سيد هارتا « وداعا ياجوفيندا » .. فتسمر الناسك فى مكانه .

- « معذرة ياسيدى .. كيف عرفت اسمى » . وهنا ضحك سيد هارتا .

- « أنا أعرفك ياجوفيندا منذ كنت فى بيت أبيك وفى مدرسة البراهمة ، وعند تقديم القرابين وفى إقامتنا مع السامانا . وفى تلك الساعة التى قضيناها فى بستان جيتاڤينا ، عندما حلفت يمين الولاء للمستنير .. »

فصاح جوفيندا « أنت سيدهارتا . الآن عرفتك ولا أفهم لماذا لم أتعرف عليك فورا . تحياتى ياسيد هارتا ، ما أعظم سرورى برؤيتك مرة أخرى ! » .

- « أنا أيضا مسرور برؤيتك ثانية . لقد حرستنى أثناء نومى . وأنا أشكرك مرة أخرى ، وإن لم أكن فى حاجة إلى حارس لى . أين تمضى ياصديقى ؟ » .

- « لست ذاهبا إلى مكان محدد ... فنحن النساك راحلون دائما على الطريق . باستثناء .. الفصل المطير نحن ننتقل دائما من مكان إلى آخر ، ونعيش تبعا للقاعدة وننادى بالبشارة ، ونجمع الصدقات . ثم نمضى فى سبيلنا .. والحال على هذا المنوال دائما . ولكن إلى أين تذهب ياسيد هارتا ؟ » .

قال سيد هارتا : « إن حالى لا يختلف عن حالك ياصديقى . لن أذهب إلى أى مكان .. إنما أنا عابر سبيل فحسب . إننى أقوم برحله حج . »

قال جوفيندا : « تقول إنك تقوم برحلة حج ، وأنا أصدقك ، ولكن سامحنى ياسيد هارتا ، إذ لا تبدو فى منظر الحاج ، فأنت ترتدى ثياب رجل غنى ، وتنتعل حذاء على آخر طراز ، وشعرك المعطر ليس شعر حاج .. ليس شعر السامانا . »

- «أنت دقيق الملاحظة ياصديقى .. وأنت ترى كل شىء بعينيك الثاقبتين .. ولكنى لم أقل لك أننى من السامانا . قلت إننى أقوم برحلة حج .. وهذا حق .. » .

قال جوفيندا : « تقوم برحلة حج . ولكن قلائل هم الذين يحجون فى مثل هذه الثياب .. وفى مثل هذا الحذاء ، وهذا الشعر .. وأنا الذى تجولت سنوات طوالا ، لم أرقط مثل هذا الحاج » .

- « أنا أصدقك ياجوفيندا . ولكنك ها أنت ذا تلتقى اليوم بمثل هذا الحاج مرتديا هذه الثياب . منتعلا مثل هذا الحذاء . تذكر ياعزيزى جوفيندا أن عالم المظاهر عالم عابر ، وأن طراز ثيابنا وشعرنا عابر إلى أقصى حد . بل إن شعرنا واجسامنا أنفسها عابرة . وقد كانت ملاحظتك فى محلها . فأنا أرتدى ثياب رجل غنى ، وأنا ارتديها لأننى كنت رجلا غنيا . وأنا أصفف

شعرى مثل رجال الأناقة والمجتمع الراقى .. لأننى كنت واحدا منهم . » .

- « وماذا أنت الآن ياسيد هارتا ؟ » .

- « لست أدرى . ومعرفتى بذلك لا تزيد عن معرفتك . إننى على الطريق . كنت رجلا ثريا ، ولكننى لم أعد الآن كذلك . أما ماذا سأكون غدا ، فهذا ما لا أعرفه . »

- « هل فقدت ثروتك ؟ »

- « أجل فقدتها أو هى التى فقدتنى . لست متأكداً إن عجلة المظاهر تدور سراعا ياجوفيندا . أين سيد هارتا البرهمى ؟ وأين سيد هارتا السامانى ؟ وأين سيد هارتا الرجل الغنى ؟. العابر سرعان ما يتغير ياجوفيندا . أنت تعلم ذلك . »

وظل جوفيندا ينظر مرتابا إلى صديق صباه وقتا طويلا . ثم انحنى أمامه كما يفعل الإنسان لأصحاب الجاه . ثم مضى فى سبيله .

وراقبه سيد هارتا مبتسما وهو يرحل . كان لا يزال يحبه . هذا الصديق المخلص الذى لا يبارحه القلق . وفى هذه اللحظة ، فى هذه الساعة الرائعة ، وبعد هذا النوم المدهش الذى تخلله « أوم » كيف يملك نفسه عن أن تحب شخصا ما أو شيئا ما . هذا هو بعينة السحر الذى وقع له أثناء نومه .. و« أوم » الذى شاع فى أعطافه .. لقد أحب كل شىء ، وكان مفعما بعشق بهيج لكل

ما يقع عليه بصره . وبدا له أن هذا هو السبب الذى كان من أجله عليلا فى حياته السابقة - لأنه لم يكن يستطيع أن يحب شيئا أو أحدا ..

وبابتسامة ، شيَّع سيد هارتا الناسك المرتحل . وكان النوم قد ردَّ إليه شيئا من قواه .. ولكنه كان يعانى جوعا هائلا . إذ لم يأكل شيئا منذ يومين . وكان زمن تحمله للجوع قد انقضى منذ عهد بعيد . وتذكر ذاك العهد فى شىء من الاضطراب ، وفى شىء من الضحك أيضا . وتذكر أنه تفاخر فى ذلك العهدبثلاثة أشياء أمام كماله .. ثلاثة فنون نبيلة لا تقهر هى : الصيام والانتظار والتفكير . كانت هذه هى ممتلكاته .. جاهه وسطوته .. عكازه الراسخ .. ولقد تعلم هذه الفنون الثلاثة ولاشىء سواها خلال أعوام شبابه المجتهدة المثابرة .. ولكنه فقدها الآن ، ولم يعد يملك شيئا منها بعد . لا الصيام ، ولا الانتظار ، ولا التفكير . لقد استبدل بها الآن أتعس الأشياء .. الأشياء العابرة . ملذات الحس ... الحياة الناعمة وعالم الجاه والثراء . لقد سلك طريقا غريبا ويبدو الآن أنه قد أصبح حقا شخصا عاديا ..

وأمعن سيد هارتا الفكر فى حالته . فوجد أنه من العسير عليه أن يفكر ، ولم يجد فى نفسه رغبة فى هذا حقا . ولكنه أرغم نفسه .

والآن بعد أن أفلتت منى كل تلك الأشياء العابرة مرة أخرى ، هاأنذا أقف ثانية تحت الشمس كما وقفت ذات مرة طفلا صغيرا لا أملك شيئا . ولا شيئا أعرف ، ولم أتعلم شيئا . ياللغرابة .. الآن ، وبعد أن فارقني الشباب واشتعل الرأس شيبا ، ووهن العظم منى ، هاأنذا إبدأ الآن كما يبدأ الطفل . وكان لابد أن يبتسم مرة أخرى . أجل . إن مصيره عجيب ، إنه يعود القهقرى ، وهو يقف مرة أخرى فى هذا العالم خاوى الوفاض . عاريا جاهلا . ولكنه لم يأسَ على ذلك ، كلا ، بل أحس برغبة شديدة فى أن يضحك من نفسه ، ومن هذا العالم الأحمق الغريب .

قال فى نفسه : إن الأشياء تَسير معك إلى الخلف .. وضحك . وما إن قال ذلك حتى ومضت نظرته على النهر ، فرأى أن النهر يجرى باستمرار إلى الخلف ، ويغنى مرحا . فأعجبه إعجابا شديدا ، وابتسم مبتهجا إليه . أليس ذلك هو النهر الذى أراد يوما أن يغرق نفسه فيه .. منذ مئات السنين . أم كان كل ذلك حلما ..

ما أغرب ما كانت حياته ! لقد تسكع خلال مسالك عجيبة . عندما كنت صبيا أبحث مشغولا بالآلهة والقرابين وعندما كنت شابا كنت عاكفاً على النسك ، مولعا بالتفكير والتأمل . كنت

عاكفا أبحث عن « براهما » وكنت أوقِّر الأبدى فى « أتمان » ، وفى شبابى كنت منجذبا إلى التكفير ، وعشت فى الغابات ، وقاسيت الهجير والزمهرير ، وتعلمت الصوم ، وتعلمت كيف أقهر جسدى . ثم اكتشفت مبهورا تعاليم « بوذا » الجليل ، وأحسست أن المعرفة ووحدة العالم .. تجرى فى عروقى مجرى الدم . ولكنى شعرت أننى مجبر على الافتراق عن بوذا ، وعن المعرفة العظيمة فرحلت ، وتعلمت مسرات الحب من كماله ، والتجارة من كاما سوامى ، وجمعت الأموال وبعثرت الأموال . واكتسبت ذوقا للمأكل الفاخر ، وتعلمت كيف أنشِّط حواسى .. وكان لابد لى من إنفاق أعوام عديدة على هذا النحو لكى أفقد ذكائى ، وقدرتى على التفكير ، ولكى أنسى كل شىء عن وحدة الأشياء .. أليس من الحق أننى تحولت ببطء وعبر انحرافات كثيرة من رجل إلى طفل ؟ من مفكر إلى شخص عادى ؟ .. ومع ذلك كان هذا الطريق صالحا ، ولم يمت الطائر الذى كان فى صدرى ، ولكن ياله من طريق ! كان لابد من أن اجتاز كل هذا الغباء ، كل هذه الرذائل ، كل هذه الأخطاء .. كل هذا الغثيان وانقشاع الوهم والأحزان ، لكى أصبح طفلاً من جديد .. ولكى أبدأ من جديد ... ولكن من الصواب أن يكون الأمر على هذا النحو . إن عينى وقلبى يؤيدان هذا ... كان لابد أن أجرب اليأس ، وأن أغوص إلى أعمق الأعماق الذهنية . إلى أفكار

الانتحار لكى أجرب الفضل الآلهى ، ولأستمع إلى « أوم » مرة أخرى ، ولكى أنام بعمق مرة أخرى،ولكى استيقظ منتعشا مرة ثانية . كان لابد أن أصير أحمق مرة أخرى ، لكى أجد الإنسان فى نفسى . كان لابد أن اقترف الإثم ، لأعيش ثانية . فأين سيقودنى طريقى بعد ذلك ، هذا الطريق غبى ، يسير فى دوائر لولبية ، وربما فى دوائر ..

ولكن أى اتجاه سلكه فسوف أتبعه ...

وشعر بسعادة غامرة تشيع فى باطنه .

وسأل نفسه من أين أتت ؟ وما سبب هذا الشعور بالسعادة ؟ هل صدرت عن نومتى الطويلة الطيبة التى أفادتنى كل هذه الفائدة ؟ أم من كلمة « أوم » التى نطقت بها ؟ أو لأننى هربت ولأن هروبى قد اكتمل ، ولأننى أصبحت أخيرا حرا مرة أخرى ، ووقفت كالطفل تحت السماء ؟ آه . كم كان هذا الفرار سديدا ، هذا التحرر !! كان يشيع دائما فى المكان الذى هربت منه جو من الدهون المعطرة ، والتوابل والإفراط والتراخى ، كم أبغضت دنيا الترف .. والخمر والميسر .. كم أبغضت نفسى لبقائى طويلا فى ذلك العالم البشع ، كم كرهت نفسى وعاندتها وسممتها وعذبتها ، وجعلت نفسى عجوزا دميما . لن اعتبر سيد هارتا ذكيا مرة أخرى وأنا الذى تخيلت ذلك مزهوا ذات مرة . بيد أن هناك شيئا واحدا أحسنت صنعه . شيئا يسرنى . ويجب

على أن امتدحه . لقد وضعت الآن حدا لذلك البغض الذاتى .. لهذه الحياة الخاوية الحمقاء .. إننى أثنى عليك ياسيد هارتا .. لأنك بعد كل سنوات الحماقة تلك الكثيرة خطرت لك فكرة طيبة ، ولأنك حققت شيئاً ولأنك استمعت مرة أخرى إلى الطائر الذى فى صدرك يغنى ، فاتبعته .

وهكذا أثنى عى نفسه . وكان مسرورًا من نفسه ، وأنصت متعجبا إلى أمعائه التى أخذت تزوم من الجوع ، وشعر أنه تذوق شطرا من الحزن حتى الثمالة ، ولهذا لفظت الحزن نفسه .. شطرا من البؤس خلال تلك الأعوام الماضية ، حتى استهلكها إلى درجة اليأس والموت .. ولكن هذا كله حسن . فقد كان من الممكن أن يمكث فترة أطول مع كاما سوامى ، وأن يجمع المال ويبعثره ، وأن يُطْعم بدنه ، ويهمل روحه . وكان من الممكن أن يقيم زمنا أطول فى ذلك الجحيم الناعم الوثير . لو لم يحدث هذا . هذه اللحظة .. التى تخلو تماما من كل أمل .. لحظة اليأس والتوتر التى انحنى فيها على المياه المتدفقة ، متأهبا للانتحار ، هذا اليأس ، وهذا الغثيان المفرط الذى عاناه لم يهزمه تماما . فالطائر ، والنبع الصافى ، والصوت الداخلى .. مازالت أحياء . وهذا هو سبب بهجته والسر الذى أضحكه ، والضوء الذى يشع من وجهه تحت شعره الرمادى .

وقال فى نفسه : من المستحسن أن يجرب المرء كل شىء

بنفسه . فلقد تعلمت وأنا طفل أن ملذات الدنيا ومتاعها نوع من الغرور .. عرفت ذلك فترة طويلة ، ولكننى لم أجربه إلا منذ فترة قريبة . والآن لا أعرف هذه الحقيقة بعقلى فحسب .. بل بعينى وقلبى وأحشائى .. وهذا شىء طيب أن أعرف تلك الحقيقة .

وفكر مليا فى التغيير الذى اعتراه .. وأنصت إلى الطائر يغرد فى سعادة . لو أن هذا الطائر المستقر فى أعماقه قد مات ، أيكون فى ذلك هلاكه ؟ كلا ، شىء آخر قد مات فيه ، شىء ظل طويلا يتمنى أن يموت . أليس هو الشىء الذى أراد أن يحطمه خلال سنوات الزهد المتحمسة . ألم يكن . هذا الشئ هو ذاته ؟.

ذاته الضئيلة المخيفة ، المزهوة التى صارعها طيلة تلك السنين .. والتى كانت تعود فتغلبه دائما ، والتى تعود للظهور مرة بعد أخرى ، فتسلبه السعادة وتملؤه بالخوف ؟ أليست هى التى ماتت نهائيا اليوم فى الغابة على مرأى من هذا النهر البهيج ؟ أليس بسبب موتها أصبح الآن كالطفل ، مليئا بالثقة والسعادة ، خاليا من كل خوف ؟

وأدرك سيد هارتا الآن أيضا لماذا جاهد « الذات » عبثا عندما كان برهميا ناسكا .. ذلك أن كثرة المعرفة أعاقته ، قصائد مقدسة أكثر من اللازم .. طقوس لتقديم القرابين أكثر من اللازم .. إهلاك للجسد أكثر من اللازم .. وأفعال ونضال أكثر

من اللازم . كان مليئا بالعجرفة ، وكان دائما أذكى الجميع ، وأشدهم تلهفا ، يسبق الآخرين إلى كهنوتيته ، إلى عجرفته ... إلى عقلانيته .. كانت هذه الذات تقعد متحفزة هناك .. وأخذت تنمو على حين اعتقد أنه يدمرها بالصوم والتكفير .. والآن أدرك كل هذا .. وتأكد من أن الصوت الداخلى كان على حق ، وأن ما من مدرس يمكن أن يجلب إليه الخلاص ، وهذا ما دفعه إلى الخوض فى خضم العالم ، وإلى أن يفقد نفسه فى الجاه والنساء والأموال . وهذا هو ما دفعه لأن يكون تاجرا ومقامرا .. وسكيرا ، وصاحب أملاك ، إلى أن مات فيه الناسك والسامانى . وهذا هو السبب الذى جعله يقاسى تلك الأعوام البشعة ، ويعانى الغثيان ، ويتعلم درس الجنون من الحياة الجوفاء الباطلة حتى النهاية ، حتى يصل إلى اليأس المرير ، وذلك حتى يمكن لسيد هارتا منتهب الملذات، سيد هارتا رجل الأملاك – أن يموت. ولقد مات واستيقظ سيد هارتا جديد من نومه ، وسوف يطعن هذا أيضا فى السن ويموت . سيد هارتا شىء عابر ، والأشكال كلها عابرة ، أما اليوم فهو شاب ، طفل ، هذا السيد هارتا الجديد – وكان فى غاية من السعادة .

عبرت هذه الأفكار بذهنه . واستمع مبتسما إلى أمعائه ، وأصغى شاكرا – لطنين نحلة .. ونظر إلى أمعائه ، وإلى النهر المتدفق مغتبطا . لم يجتذبه نهر فى حياته كما اجتذبه هذا النهر ، ولم

يجد خريرا للماء الجارى ومظهرا له أجمل من هذا المظهر وذاك الخرير . وبدا له كأن النهر يضمر شيئا خاصا يريد أن يفضى به إليه .. شيئا لا يعرفه .. شيئا مازال فى انتظاره . لقد أراد سيد هارتا أن يغرق نفسه فى هذا النهر ، واليوم أغرق فيه سيد هارتا العجوز المتهالك اليائس . وأحس السيد هارتا الجديد بحب عميق لهذا الماء المتدافع ، واعتزم ألا يتركه مرة أخرى بهذه السرعة .

الفصل التاسع

الملاح

سأبقى بجانب هذا النهر . إنه نفس النهر الذى عبرته فى طريقى إلى المدينة . حين أخذنى لعبوره ملاح ودود . سأذهب إليه . إن سبيلى قادنى ذات مرة من كوخه إلى حياة جديدة هى الآن عتيقة ميتة . فلعل طريقى الحاضر .. حياتى الجديدة ، تبدأ من هناك . نظر سيد هارتا فى عشق إلى الماء المتدفق .. إلى الخضرة الشفافة .. إلى الخطوط البللورية التى تحدِّد تصميمها العجيب . فرأى لآلى متألقة تصعد من الأعماق ، وفقاقيع تسبح على المرآة ، وزرقة السماء تنعكس عليها . ونظر إليه النهر بألف عين خضراء وبيضاء وبللورية وزرقاء . كم يعشق هذا النهر ! وكم يسحره ! وما أعمق عرفانه بجميله ! وفى قلبه أنصت إلى الصوت الذى استيقظ حديثا يتكلم ويقول له : أحبب هذا النهر ، وامكث إلى جواره ، وتعلم منه . أجل إنه يريد أن يتعلم منه ، وأن يصغى إليه . وخيل إليه أن من يفهم هذا النهر وأسراره -

كائنا من كان - سيفهم المزيد .. المزيد من الأسرار .. بل الأسرار جميعا . ولكنه لم يشاهد اليوم إلا سراً واحدا من أسرار النهر .. سرا استحوذ على روحه .. رأى أن الماء يتدفق ويتدفق باستمرار ، ومع ذلك كان هناك دائما .. كان الماء هو نفسه دائما .. ومع ذلك فقد كان جديدا فى كل لحظة . من ذا الذى يستطيع أن يفهم هذا وأن يتصوره ؟ إنه لم يكن يفهمه ، وإنما كان على وعى فحسب بشبهة معتمة .. ذكرى شاحبة .. أصوات إلهية .

ونهض سيد هارتا . وخزات الجوع أصبحت لا تطاق .. وتسكع متألما على ضفة النهر ، مصغيا لخرير المياه ، مستمعا للجوع الذى ينخر بدنه . وعندما وصل إلى المعبر ، كان الزورق رابضا هناك .. وكان المراكبى الذى عبر بالسامانى الشاب عرض النهر ذات مرة واقفا فى الزورق ..

وتعرف عليه سيد هارتا مرة أخرى .. وكان العمر قد تقدم به كثيرا هو أيضا .

سأله : « هل تعبر بى النهر ؟ » .

وبانت الدهشة على وجه المراكبى عندما رأى رجلا من علية القوم وحيدا راجلا . فأخذه فى زورقه .. وشرع فى الرحيل .

قال سيد هارتا : « لقد اخترت حياة رائعة . فما أبدع أن يعيش المرء بالقرب من هذا النهر وأن يبحر عليه كل يوم ! »

فابتسم الملاح ، وتأرجح فى لطف .

- « شيء رائع كما تقول ياسيدى ، ولكن أليست كل حياة .. كل عمل شيئا رائعا ؟ »- « ربما . ولكننى أحسدك على حياتك » .

- « اوه » سرعان ما يفتر إعجابك بها .. إنها لم تخلق للناس الذين يرتدون ثياباً أنيقة » . فضحك سيدهارتا : « لقد حكم على اليوم من ثيابى فعلا ، وكنتُ موضع اشتباه .. هل تقبل منى هذه الثياب .. التى أراها عبئا ثقيلا ، إذ يجب أن أخبرك بأننى لا أملك نقودا أدفعها لك لعبورك بى صفحة النهر . »

فضحك المراكبى : « السيد يمزح بلا شك » .

- « أنا لا أمزح ياصديقى . لقد عبرت بى النهر ذات مرة دون أن تتقاضى أجرا . فأرجوك أن تفعلها اليوم أيضا . وخذ ثيابى مقابل ذلك . »

-« وهل سيمضّى السيد بلا ثياب ؟ ! »

-« أوثر ألا أمضى أبعد من ذلك . وأوثر أن تمنحنى شيئا من الثياب القديمة .. وأن تستبقينى هنا كمساعد لك .. أو بالأحرى صبيك ، إذ ينبغى أن أتعلم كيف أقود الزورق . »

ونظر الملاح إلى الغريب متفحصا برهة طويلة ، ثم قال أخيرا :

- « لقد عرفتك . أنت الذى نمت فى كوخى ذات مرة . لقد مضى على ذلك زمن طويل .. ربما كان أكثر من عشرين سنة .

عبرت بك النهر وافترقنا صديقين طيبين . ألم تكن من السامانا ؟ لا أستطيع أن أتذكر اسمك .. »

– « اسمى سيد هارتا . كنت من السامانا عندما رأيتنى آخر مرة . »

– « مرحبا بك ياسيد هارتا . اسمى ڤازوديڤا . وأرجو أن تكون ضيفى اليوم . وتنام أيضا فى كوخى وتخبرنى من أين أتيت ، ولماذا تشعر بكل هذا التعب من ثيابك الغالية . »

وكانا قد بلغا منتصف النهر . فأخذ ڤازوديڤا يجدف تجديفا أقوى بسبب التيار ...

وكان يجدف هادئا بذراعين مفتولتين وهو يراقب طرف الزورق .

وجلس سيد هارتا يراقبه . وتذكر كيف أحس بميل إلى هذا الرجل ذات مرة فى أيامه الأخيرة مع السامانا . وقبل شاكرا دعوة ڤازودويڤا . وعندما بلغا شاطئ النهر ساعده على إرساء الزورق فى أمان ، ثم قاده ڤازوديڤا إلى الكوخ .. وقدم إليه خبزاً وماء تناولهما سيد هارتا فى متعة . وكذلك التهم حبة المانجو التى قدمها إليه ڤازوديڤا ..

وفى ساعة متأخرة من النهار ، عندما جنحت الشمس إلى المغيب ، جلسا فوق جذع شجرة على ضفة النهر . وقص عليه سيد هارتا قصة نشأته وحياته ، وكيف رآه اليوم بعد تلك الساعة

من ساعات اليأس . واستمرت القصة حتى ساعة متأخرة من الليل .

وكان ڤازوديڤا ينصت فى اهتمام شديد . فاستمع إلى كل شيء عن نشأته وطفولته ، وعن دراساته وتطلعاته ومسراته ، واحتياجاته .. وكانت إحدى الفضائل الكبرى للملاح – وما أندرها فضيلة بين الناس – أنه يحسن الاستماع . ودون أن ينطق ڤازوديڤا بكلمة ، أحس المتحدث أنه استوعب كل كلمة فى هدوء وترقب دون أن يفوته شيء .. ولم يكن ينتظر أى شيء بصبر نافد .. ولا يوجه لوما أو اطراء ، وإنما ينصت فحسب . وأحس سيدهارتا بأن من أروع الأشياء أن يكون للمرء مثل هذا المستمع الذى يمكن أن يستغرق فى حياته الخاصة ومجاهداته وأحزانه .

ومهما يكن من أمر ، فعندما اقترب سيدهارتا من نهاية قصته ، وعندما أخبره عن الشجرة القائمة على ضفة النهر ، وعن يأسه العميق ، وعن « أوم » المقدس ، وكيف أحس بعد نومه بذلك العشق للنهر ، أنصت الملاح بانتباه مضاعف .. مستغرقا تمام الاستغراق ، وقد أغمض عينيه .

وعندما انتهى سيدهارتا وامتد الصمت بينهما برهة طويلة ، قال ڤازوديڤا : « لقد حدث ما فكرت فيه . لقد تحدث إليك النهر ، وأظهر صداقته لك أنت أيضا . إنه يتحدث إليك هذا

طيب .. طيب جدا .. امكث معى ، ياسيدهارتا . ياصديقى كانت لى زوجة ، وكان سريرها إلى جوار سريرى ، ولكنها ماتت منذ أمد بعيد . وقد عشت وحدى منذ ذلك الحين . تعال وعش معى .. هناك مكان وطعام لكلينا . »

قال سيدهارتا : « أشكرك . أشكرك واقبل . كماأشكرك يا ڤازوديڤا على حسن إصغائك ، قلة من الناس تعرف كيف تنصت ، ولم التق بشخص يستطيع أن يفعل ذلك مثلك .. وسأتعلم منك أيضا فى هذا المجال . »

قال ڤازوديڤا : « سوف تتعلم ذلك ، ولكن ، ليس منى ، لقد علمنى النهر أن استمع . وستتعلم منه أنت أيضا . النهر يعرف كل شيء . ويستطيع المرء أن يعرف منه كل شيء . لقد تعلمت من النهر فعلا أن من الخير أن يجاهد المرء إلى أسفل ، أن يغوص ، وأن يبحث فى الأعماق . وسيصبح سيدهارتا الغنى المرموق مجذِّفا . سيدهارتا البرهمى الفقيه .. ملاحا ، هذا ما تعلمته من النهر أيضا . وستتعلم الشيء الآخر أيضا . »

وبعد سكتة طويلة ، قال سيدهارتا : « وما هو هذا الشيء الآخر ياڤازوديڤا ؟ » فنهض ڤازوديڤا قائلا : « لقد تأخر الوقت ، دعنا نذهب للنوم .. لا أستطيع أن أخبرك عما يكون ذلك الشيء الآخر ، ياصديقى سوف تكتشفه ولعلك تعرفه فعلا . إننى لست من رجال العلم ، ولا أحسن الكلام والتفكير ،

كل ما أحسنه هو الإصغاء ، وأن أكون مؤمنا ، وخلاف ذلك لم أتعلم شيئا ، ولو أننى كنت أستطيع الحديث والتعليم ، فربما أصبحت معلما . ولكنى لست إلا ملاحا وعملى هو أن أعبر بالناس هذا النهر . وقد عبرت بآلاف الناس ، ولم يكن نهرى بالنسبة إليهم غير عقبة فى طريق رحلتهم . كانوا يسافرون من أجل المال أو العمل ، أو من أجل حفلات الزفاف ، أو رحلات الحج .. وكان النهر يعترض طريقهم .

« وكان الملاح هناك ليجتاز بهم سريعا تلك العقبة .. ومع ذلك كان بين هؤلاء الآلاف قلة من الأفراد .. أربعة أو خمسة لم يكن النهر فى نظرهم عقبة .. لقد استمعوا إلى صوته ، وأنصتوا إليه . فأصبح النهر مقدسا بالنسبة إليهم ، كما هو بالنسبة لى .. دعنا الآن نذهب إلى الفراش ، يا سيدهارتا » .

وأقام سيدهارتا مع الملاح . وتعلم منه كيف يعنى بالزورق . وعندما لم يكن ثمة ما يفعله عند المرسى ، كان يعمل فى حقل الأرز مع ڤازوديڤا ، ويجمع الحطب ، ويقطف الثمار من أشجار الموز . وتعلم صناعة المجاديف ، وإصلاح الزورق ، وصناعة السلال ، وكان سعيدا بكل ما يصنعه ويتعلمه . ومرت الأيام والشهور سراعا . ولكنه تعلم من النهر أكثر مما يستطيع ڤازوديڤا أن يعلمه .. تعلم منه باستمرار ، تعلم منه قبل كل شىء كيف ينصت ، كيف ينصت بقلب ساكن ، بروح مترقبة مفتوحة ، دون

انفعال ، دون شهوة ، دون حكم ، دون آراء .

وعاش سعيدا مع ڤازوديڤا . وكانا يتبادلان الكلمات من حين إلى آخر .. كلمات قلائل موزونة ، فلم يكن ڤازوديڤا من عشاق الكلمات . ونادرا ما كان سيدهارتا ينجح فى إغرائه بالكلام . وسأله ذات مرة : « هل تعلمت أيضا ذلك السر من النهر ، وهو أنه يوجد شىء اسمه الزمان ؟ » وشاعت ابتسامة مشرقة فوق وجه ڤازوديڤا ، قال : « أجل يا سيدهارتا . أهذا ما تعنيه ؟ ! أن النهر فى كل مكان فى الوقت نفسه .. فى المنبع وفى المصب .. فى الشلال والمرسى ، فى التيار والمحيط وفى الجبال ، وفى كل مكان . وأن الحاضر هو وحده الموجود بالنسبة إليه ، لا ظل الماضى ولا ظل المستقبل » .

قال سيدهارتا : « هذا ما أعنيه .. وعندما تعلمت ذلك استعرضت حياتى ، وكانت هى أيضا نهرا . الرجل الناضج ، وسيد هارتا الشيخ العجوز لم يفصل أحدهما عن الآخر إلا الظلال فحسب ، دون أن يفصل بينهما الواقع .. وحيوات سيدهارتا السابقة لم تكن أيضا فى الماضى ، كما أن موته ورجوعه إلى براهما لن يكونا فى المستقبل ، لم يوجد شىء فى الماضى ، ولن يوجد شىء فى المستقبل ، ولكل شىء واقع وحضور . » كان سيدهارتا يتحدث مسرورا . فهذا الكشف جعله فى غاية من السعادة . أليست الأحزان جميعا فى الزمان إذن ، وكل تعذيب

للنفس ، وكل خوف من الزمان . ألا يتم التغلب على المصاعب جميعا ، وعلى الشر فى العالم حالما يتغلب المرء على الزمان ، حالما يبدد الإنسان الزمان ؟ كان يتحدث مبتهجا ، غير أن ڤازوديڤا اكتفى بابتسامة مشرقة ، وبإطراقه من رأسه ، علامة الموافقة . وربت على كتفُ سيدهارتا وعاد إلى عمله .

وذات مرة أخرى عندما انتفخت أوداج النهر خلال الموسم المطير ، وأخذ يزمجر عاليا ، قال سيد هارتا : « أليس من الحق ياصديقى ، أن للنهر أصواتا كثيرة جدا ؟ أليس له صوت ملك ومحارب وثور ، وطائر ليلى ، وامرأة حبلى ، ورجل متنهد ، وآلاف الأصوات الأخرى ؟ »

فأوما ڤازوديڤا موافقا : « هذا صحيح . إن أصوات المخلوقات جميعا فى صوته .. »

وواصل سيدهارتا حديثه : « تعلم أية كلمة ينطقها عندما ينجح المرء فى الاستماع إلى أصواته الآلاف العشرة جميعا فى وقت واحد ؟ »

فضحك ڤازوديڤا ضحكة مرحة ، وانحنى صوب سيدهارتا ، وهمس فى أذنه باسم « أوم » المقدس . وكان هذا هو ما سمعه سيدهارتا .

وكلما مضى الزمن بدأت ابتسامته تشبه ابتسامه الملاح .. فكادت تكون مثلها إشراقا ، وإمتلاءً بالسعادة ، ووضاءة خلال

عشرات الغضون الصغيرة ، وطفولية ، وشيخوخة . وكان كثير من المسافرين الذين يرون الملاحين معا يعتقدون أنهما شقيقان . وفى كثير من الأحيان ، كانا يجلسان معا فى المساء على جذع الشجرة عند شاطئ النهر ، وهما ينصتان صامتين إلى الماء الذى لم يكن بالنسبة إليهما مجرد ماء بل صوت الحياة .. صوت الوجود .. صوت الصيرورة الدائمة .

وكان يحدث فى بعض الأحيان أثناء استماعهما للنهر ، أن تخطر لهما نفس الأفكار ..

وربما كانت عن محادثة بينهما فى اليوم السابق، أوعن مسافر شغل مصيره وظروفه عقليهما ، أو ربما كانت عن الموت ، أو عن طفولتها . وعندما كان النهر يفضى إليهما بشىء حسن فى نفس اللحظة كانا ينظران أحدهما إلى الآخر ، وهما يفكران نفس الفكرة ، وكلاهما سعيد بنفس الإجابة على السؤال نفسه .

كان شىء ما يشيع فى المرسى ومن المَلَّاحْين .. شىء شعر به كثير من المسافرين . فقد يحدث أحيانا أن يبدأ مسافر - بعد أن ينظر إلى وجه واحد من الملاحين - فى الحديث عن حياته وعن متاعبه . وقد يعترف بخطاياه ، ويطلب العزاء والنصيحة . وقد يحدث أحيانا أخرى أن يطلب شخص آخر السماح له بقضاء المساء معهما للاستماع إلى النهر .. وحدث أيضا أن أقبل كثير من الفضوليين الذين قيل لهم أن هناك حكيمين أو ساحرين

أو قديسيْن يعيشان عند المرسى . وكان هؤلاء الفضوليين يوجهون أسئلة كثيرة ، ولكنهم لا يتلقون عنها أية أجوبة . كما أنهم لا يجدون سحرة أو حكماء ، كل ما كانوا يجدونه شيخيْن صديقيْن يبدو أنهما مصابان بالبكم ، وغرابة الأطوار ، والغباء .. وكان الفضوليون يضحكون ويسخرون من حماقة الناس ، وسرعة تصديقهم حين ينشرون مثل تلك الشائعات الخرافيةً .

ومضت الأعوام ، دون أن يتناولهما بالذكر أحد . وذات يوم أتى بعض النساك من أتباع جوتاما البوذا وطلبوا أن يجتازوا النهر . وعلم منهم الملاحان أنهم عائدون إلى معلمهم العظيم بأسرع ما يمكن ، فقد انتشرت الأنباء بأن المستنير فى حالة خطرة من المرض ، وربما كان يعانى سكرات الموت الأخيرة ليبلغ الخلاص . ولم يلبث أن وصل فوج آخر من النساك ، يتبعه فوج آخر . ولم يكن النساك وكذلك معظم المسافرين الآخرين يتحدثون عن شيء آخر غير جوتاما وموته الوشيك . وكما يتقاطر الناس من كل حدب وصوب لتكوين حملة حربية أو لمشاهدة تتويج ملك ، فكذلك اجتمعوا كأسراب النحل ، وكأنما يجتذبهم مغناطيس ، ليذهبوا حيث رقد بوذا الجليل على فراش موته ، حيث يقع هذا الحدث العظيم ، وحيث ينتقل مخلِّص عصر بأكمله إلى رحاب الأبدية .

وفى هذه الآونه ، فكر سيدهارتا مليا فى هذا الحكيم المحتضر الذى نَبَّه صوته الآلاف ، صوته الذى استمع إليه هو أيضا ، وملامحه المقدسة الذى نظر إليها أيضا ذات مرة فى رهبة .

وكان تفكيره فيه ممتزجا بالحب . وتذكر سبيله المؤدى إلى الخلاص ، وابتسم متذكرا الكلمات التى تفوه بها ذات مرة أثناء شبابه للمستنير . وبدت له هذه الكلمات وقحة فجّة ، فقد ظل يعرف مدة طويلة أنه لم ينفصل عن جوتاما وإن لم يكن قادرا على قبول تعاليمه . كلا ، إن الباحث الصادق لا يستطيع أن يقبل أية تعاليم ، إن كان يريد مخلصا أن يجد شيئا . بيد أن هذا الذى وجد ، يمكن أن يوافق على كل مسلك ، وعلى كل هدف ، فلا شىء يفصله عن جميع الآلاف الآخرين الذين يحيون فى الأبدية ، ويتنفسون ما هو إلهى .

وذات يوم بينما كانت أفواج كثيرة من الناس يحجون إلى بوذا المحتضر ، كانت كماله أيضا - وهى أجمل الغانيات فى زمانها - فى طريقها إليه . وكانت قد انسحبت من طريقتها السابقة فى الحياة ، وأهدت حديقتها لنساك جوتاما ، ولاذت بتعاليمه ، وانتسبت إلى النسوة والمحسنات المنضمات إلى الحجيج . وعندما سمعت بموت جوتاما الوشيك ، شرعت فى الرحيل على قدميها ، مرتديه أبسط الثياب ، مصطحبة ابنها . وفى طريقهما ، بلغا النهر . غير أن الصبى كان قد أنهكه التعب ، فأراد أن يعود إلى

البيت ليستريح ويأكل . وكان مشاكسا بكاء ، فكان لزاما على كماله أن تبقى معه فى كثير من الأحيان ، فاعتاد أن يضع ارادته فى مضاد إرادتها .. وكان عليها أن تطعمه ، وأن تهيىء له وسائل الراحة ، وأن تؤنبه من حين إلى آخر .. ولم يستطع أن يفهم لماذا تقوم أمه بهذه الرحلة المتعبة التعسة إلى مكان مجهول .. إلى رجل غريب مقدس يحتضر . فليمت . ما شأن الغلام بهذه المسألة ؟ .

ولم يكن الحجيج بعيدين عن مرسى ڤازوديڤا ، عندما طلب سيدهارتا الصغير من أمه أن يستريح . وكانت كماله نفسها منهكة . فبينما كان الغلام يأكل إصبعا من الموز ، اضطجعت على الأرض ، وأغمضت عينيها نصف إغماضة وأخلدت إلى الراحة . وفجأة أطلقت صرخة ألم . فذعر الغلام ونظر إليها . فرأى وجهها شاحبا من الرعب .. فمن تحت ملابسها زحف ثعبان صغير أسود بعد أن عض كماله ..

وهرع الاثنان ليلحقا ببعض الناس . وعندما اقتربا من المرسى ، انهارت كماله ، وعجزت عن المضى إلى أبعد من ذلك . وصرخ الغلام مستنجدا ، وهو يقبل أمه فى تلك الأثناء ويعانقها ..

وانضمت إليه أيضا فى صرخاته المدوية جماعة من الحجيج ، حتى تناهت الأصوات إلى ڤازوديڤا الذى كان يقف عند المرسى ، فهرول إليها ، وأخذ المرأة بين ذراعيه ، وحملها إلى الزورق ..

ولحق به الغلام . وسرعان ما وصلوا إلى الكوخ حيث كان يقف سيدهارتا محاولا إشعال النار . ورفع عينيه فكان أول مارأى وجه الغلام الذى ذكره تذكيرا غامضا بشىء ما . ثم رأى كماله التى تعرَّف عليها فورا ، رغم أنها رقدت مغشيا عليها بين ذراعىْ الملاح .. ثم علم فيما بعد أن الوجه الذى ذكره بشىء ما هو وجه ابنه . وأسرع وجيب قلبه ..

وغسل جرح كماله . ولكنه كان قد أسود فعلا ، وكذلك انتفخ جسدها . فأعطيت دواء مقويا يساعد على إعادة الوعى . فثابت إلى وعيها . وكانت ترقد على سرير سيدهارتا ، وفى كوخه . وكان سيدهارتا الذى أحبته ذات يوم حبا جما .. ينحنى عليها . وظنت أنها تحلم .. فابتسمت وهى تنظر إلى وجه عشيقها . وشيئا فشيئا ، أدركت حالتها ، وتذكرت عضة الثعبان فنادت متلهفة على ابنها . وتذكرت سيدهارتا : « لا تخافى .. إنه هنا » .

ونظرت كماله فى عينيه . كانت تجد مشقة فى الكلام والسم يسرى فى عروقها . قالت : « لقد طعنتَ فى السن ياعزيزى ، وصرت أشيب . ولكنك مثل السامانى الشاب الذى أتى إلىّ فى حديقتى بلا ثياب ، وبقدمين متربتين . أنت أشد شبها به الآن منك عندما تركت كاماسوامى وتركتنى . عيناك مثل عينيه ياسيدهارتا . آه .. وأنا أيضا أصبحت عجوزا .. عجوزا .. هل

عرفتنى ؟ » فابتسم سيدهارتا : « عرفتك على الفور ياعزيزتى كماله » .

وأشارت كماله إلى ابنها وقالت : « وهل عرفته هو أيضا ؟ إنه ابنك » .

ثم زاغت عيناها وأغمضتا . وشرع الصبى فى البكاء . فأقعده سيدهارتا على ركبته ، وتركه يبكى وهويسوى شعره . ولما نظر إلى وجه الغلام تذكر صلاة برهمية تعلمها يوما ما عندما كان طفلا صغيرا . وفى صوت بطىء أغن ، شرع فى إنشادها ، وتواردت عليه الكلمات من الماضى ، ومن طفولته ، وهدأ الطفل أثناء إنشاده ، وإن ظل ينشج قليلا حتى غلبه النعاس .. فأرقده سيدهارتا على سرير ڤازوديڤا .. بينما وقف هذا الآخر أمام الموقد يطهو أرزا ونظر إليه سيدهارتا ، فابتسم ڤازوديڤا .

قال سيدهارتا فى هدوء : « إنها تحتضر . . إنها تحتضر » . وأطرق ڤازوديڤا برأسه . وكانت ألسنه اللهيب المشتعلة فى الموقد تنعكس على وجهه العطوف . واستعادت كماله وعيها . وكان الألم مرتسما على وجهها . وقرأ سيدهارتا العذاب على وجهها .. وقرأ سيدهارتا العذاب على ثغرها وعلى وجهها الشاحب .. وقرأه هادئا ، منتبها ، مترقبا ، مشاركا لها . وكانت كماله على وعى بذلك . وأخذت نظرتها تبحث عن نظرته .

ونظرت إليه قائلة : « أرى الآن أن عينيك قد تغيرتا أيضا .

لقد صارتا مختلفتين كل الاختلاف ، كيف أعرف أنك مازلت سيدهارتا ؟ أنت سيدهارتا ، ولكنك مع ذلك لا تشبهه » .

فلم يتكلم سيدهارتا ، بل نظر فى عينيها صامتا . سألته : « هل وصلت إليه ؟ هل وجدت السلام ؟» فابتسم ووضع راحته على راحتيها ..

قالت : « أجل .. إننى أرى ذلك .. وأنا أيضا سأجد السلام .. »

فهمس سيدهارتا : « لقد وجدته » .

ونظرت إليه كماله نظرة ثابتة . كانت نيتها تتجه إلى القيام برحلة حج إلى جوتاما لمشاهدة وجهه المستنير ، والحصول على شيء من السلام الذى يشع منه . ولكنها لم تجد إلاه .. « أى سيدهارتا » . وكان ذلك خيرا لا يقل عن الخير الذى يمكن أن تناله فى حالة مشاهدتها للآخر . كانت تريد أن تقول له هذا ، غير أن لسانها لم يعد يطاوع إرادتها . ونظرت إليه صامتة ، فرأى الحياة تذوى فى عينيها . وعندما فاض الألم الأخير من عينيها ، وسرت القشعريرة الأخيرة فى بدنها ، أغمض جفنيها بأصابعه .

وجلس هناك برهة طويلة شاخصا إلى وجهها الميت ، وإلى ثغرها .. ثغرها العجوز المتهالك ، وإلى شفتيها المتقلصتين . وتذكر كيف شبه شفتيها ذات مرة فى ربيع العمر بتينة تم قطافها منذ لحظة . وظل ينظر إلى الوجه الشاحب فترة طويلة مدققا ..

وإلى التجاعيد المكدودة .. ورأى وجهه هو أيضا شبيها به .. شاحبا كشحوبه .. ميتا كموته . وفى الوقت نفسه شاهد وجهه ووجهها ، نضيرا ، بشفتين ورديتين ، وعينين متحمستين . وطغى عليه شعور بالوجود الحاضر المعاصر . وفى هذه الساعة أحس إحساسا أشد حدة بأن الحياة لا تفنى .. كل حياة ، وبأبدية كل لحظة .

وعندما نهض ، كان ڤازوديڤا قد أعد له شيئا من الأرز . غير أن سيدهارتا لم يأكل شيئا . وفى الحظيرة حيث توجد العنزة ، فرش الشيخان شيئا من القش ، ورقد ڤازوذيڤا .. أما سيد هارتا ، فقد ذهب إلى الخارج ، وجلس أمام الكوخ طيلة الليل ، مصغيا إلى النهر ، مستغرقا فى الماضى ، متأثرا ومحصورا فى وقت واحد بكل مراحل حياته، وكان يقوم من حين إلى آخر ، ويمشى إلى باب الكوخ ، متصنتا عسى أن يكون الغلام نائما .

وفى الصباح الباكر ، قبل أن تظهر الشمس خرج ڤازوديڤا من الحظيرة ، وسار إلى صديقه ثم قال : « إنك لم تنم » .

- « كلا ياڤازوديڤا . وإنما جلست هنا مصغيا للنهر . وقد أفضى إلّى بالكثير ، وملأنى بأفكار عظيمة عديدة . بأفكار عن الوحدة : »

- « لقد تعذبت يا سيد هارتا ، ومع ذلك أرى أن الحزن لم يدخل قلبك .»

- « كلا ياصديقى العزيز . ولماذا ينبغى أن أكون حزينا ؟أنا الذى كنت غنيا وسعيدا ، قد أصبحت الآن أغنى وأسعد . وهذا هو ابنى يوهب الّى » .

- « وأنا أيضا أرحب بابنك . والآن دعنا نذهب إلى العمل ياسيدهارتا ، وأمامنا أعمال كثيرة . لقد ماتت كماله على نفس السرير الذى ماتت عليه زوجتى ، وستبنى أيضا محرقة كماله الجنائزية على نفس الربوة التى بنيت عليها محرقة زوجتى » .

وبينما كان الغلام نائما ، أخذا يبنيان محرقة جنائزية .

الفصل العاشر

الابـــن

وشاهد الصبى - مذعورا باكيا - دفن أمه . واستمع إلى سيد هارتا - وجلا حزينا - وهو يستقبله بوصفه ابنه ، ويرحب به فى كوخ ڤازوديڤا . وكان يجلس أياما بأكملها فوق ربوة الأموات شاحب الوجه ، شاخص البصر إلى الأفق البعيد ، موصدا قلبه ، مناضلا مجاهدا ضد قدره .

وعامله سيد هارتا بكثير من الرعاية ، وتركه لوحدته ، فقد كان يحترم حزنه . وكان سيد هارتا يدرك أن ابنه لم يعرفه ، ومن ثم لا يستطيع أن يحبه كما يحب الابن أباه . ورويدا رويدا ، رأى ، وتحقق أيضاً،أن الغلام الذى يبلغ من العمر أحد عشر عاماً كان ابن أمه المدلل ، وأنه نشأ على عادات الموسرين ، وأنه اعتاد على الطعام الفاخر ، والفراش الناعم ، وعلى إصدار الأوامر إلى الخدم والحشم . وأدرك سيد هارتا أن الصبى المدلل الحزين لا يمكن أن يكون راضيا - هكذا فجأة ، فى مكان غريب

فقير . فلم يضغط عليه ، وصنع الكثير من أجله . وكان يدخر له دائمًا أفضل الطعام ، وكان يأمل أن يكسب مشاعره تدريجيا بالصبر الودود . وكان يعتبر نفسه غنيا سعيدا عندما جاء الصبى إليه ، ولكن مع مضى الزمن ، وبقاء الطفل على حاله من المشاكسة والبغضاء ، وعندما ظهرت غطرسته وتحديه وامتناعه عن أداء أى عمل ، وحينما لم يبد منه أى احترام للنسيخين ، وانكشفت سرقاته من أشجار الفاكهة التى يمتلكها ڤازوديڤا ، أخذ سيد هارتا يدرك أن ابنه لم يجلب إليه السعادة والسلام ، بل جلب إليه الحزن والكدر . ولكنه كان يحبه ويؤثر الحزن والكدر اللذين يجلبهما هذا الحب على السعادة والسرور بغير الغلام .

ومنذ أن أقام سيد هارتا الصغير فى الكوخ ، تقاسم الشيخان العمل ، فأخذ ڤازوديڤا على عاتقه كل الأعمال التى تتعلق بالمرسى ، على حين تحمل سيد هارتا جميع الأعمال التى ترتبط بالكوخ والحقول ، لكى يكون بجانب ابنه .

وانتظر سيد هارتا صابرًا شهورًا عديدة على أمل أن يتمكن ابنه من فهمه ، وقبول حبه ، بل ربما بادله هذا الحب . ولاحظ ڤازوديڤا هذا كله شهورًا متعاقبة ، وانتظر هو الآخر صامتا . وذات يوم بينما كان سيد هارتا الصغير يكرب أباه بتحديه ، ومزاجه الحاد ، وبتحطيمه طاستى الأرز ، انتحى ڤازوديڤا ، بصديقه جانبا ، وتحدث إليه فى المساء . قال « فلتغفر لى . فأنا

أحدثك بوصفك صديقى ، وأستطيع أن أرى أنك مهموم شقى .. إن ابنك يا صديقى العزيز ، يعكر صفو حياتك ، وحياتى أنا أيضًا . فالطائر الصغير تعود على حياة مختلفة ، على عش مختلف .

« وهو لم يهرب من حياة الترف والمدينة بشعور الغثيان والقرف كما فعلت أنت ، لقد ترك هذه الأشياء جميعًا رغم إرادته . ولقد سألت النهر يا صديقى .. سألته مرارا ، فضحك النهر ، ضحك منى ، وضحك منك . كانت أعطافه تهتز ضحكا من حماقتنا . فالماء ينساب إلى الماء .. والشباب إلى الشباب . إن ابنك لن يكون سعيدا فى هذا المكان . إسأل النهر وانصت إلى ما يقول » .

ونظر سيد هارتا حائرا إلى الوجه العطوف الذى انتشرت على صفحته غضون كثيرة ذات طبيعة خيرة . قال بصوت ناعم : « وكيف أستطيع الافتراق عنه ؟ امنحنى مزيدا من الوقت يا صديقى العزيز . أنا أجاهد من أجله ، وأحاول الوصول إلى قلبه ، وسأكسبه بالحب والصبر ، وسيتحدث إليه النهر هو أيضًا ذات يوم . إنه مدعوٌّ أيضًا » .

وأضحت ابتسامة ڤازوديڤا أكثر دفئا ، قال : « أوه أجل ، هو أيضًا مدعو ، وهو أيضًا ينتمى إلى الحياة الأبدية . ولكن هل تعرف ، أو أعرف أنا ، إلام يُدْعى ؟ وإلى أى سبيل وإلى أية

أفعال وأية أحزان ؟ إن أحزانه لن تكون طفيفة ، فقلبه متكبر صلب ، ومن المحتمل أن يقاسى الكثير ، وأن يرتكب كثيرا من الأخطاء ، ويقع فى كثير من الظلم ، ويقارف كثيرا من الخطايا .. أخبرنى يا صديقى .. أتقوم بتربية إبنك ؟ أهو مطيع ؟ أتضربه أم تعاقبه ؟ »

– « كلا يا ڤازوديڤا . أنا لا أفعل شيئا من هذا » .

– « أعرف ذلك فأنت لست صارما معه ، وأنت لا تعاقبه . ولا تأمره لأنك تعلم أن اللطف أقوى من القسوة ، وأن الماء أقوى من الصخر ، وأن الحب أقوى من العنف . حسن جدا .. وأنا أثنى عليك ، ولكن ربما كنت مخطئا لأنك لست صارما معه ، ولأنك لا تعاقبه . ألا تقيده بحبك ؟ ألا تخجله يوميا بطيبتك وصبرك ، وتجعل الأمور أشد عسرا بالنسبة إليه ؟ ألا ترغم هذا الغلام المتعجرف المدلل على العيش فى كوخ مع شيخين من أكلة الموز ، حتى ليعد الأرز بالنسبة إليهما ترفا . ولا يمكن أن تتفق أفكارهما مع أفكاره ، ولهما قلبان عجوزان هادئان ، ينبضان نبضا مختلفا عن نبض قلبه ؟ ألا تراه مقهورا نزل به العقاب بسبب هذا كله ؟ » .

ونكس سيد هارتا رأسه متحيرا ، ثم سأل فى وهن : « وماذا ترى أن أفعل ؟ »

قال ڤازوديڤا : « خذه إلى المدينة . خذه إلى بيت أمه . هناك

سيكون الخدم . خذه إليهم فإن لم يكونوا هناك خذه إلى معلم ، لا بغرض التربية فحسب ، ولكن لكى يلتقى بصبيان وبنات آخرين ، ويكون وسط العالم الذى ينتمى إليه . ألم تفكّر فى هذا قط ؟ » قال سيد هارتا فى أسى : « تستطيع أن تستشف ما فى قلبى . لقد فكرت فى ذلك كثيرا . ولكن كيف يستطيع وهو يملك مثل هذا القلب المتحجر ، أن يسلك فى هذه الدنيا ؟ ألن يعتبر نفسه أعلى من الآخرين . ألن يفقد نفسه فى الملذات والسلطان ؟ ألن يكرر جميع أخطاء أبيه ؟ . ألن يضيع تمام الضياع فى سانسارا « عالم الحس والمظاهر » ؟ »

وابتسم الملاح مرة أخرى ، ولمس ذراع سيد هارتا فى رفق وقال : « اسأل النهر عن ذلك يا صديقى ، وانصت إليه واضحك منه . أتظن حقا أنك قد ارتكبت ما ارتكبت من حماقات لكى تحمى ابنك منها ؟ أتستطيع أن تحمى ابنك من سانسارا وكيف ؟ عن طريق التعليم أو الصلوات أو الموعظة ؟ يا صديقى العزيز .. أنسيت تلك القصة المثيرة عن سيد هارتا ابن البرهمى التى رويتها لى هنا ذات مرة ؟ من الذى حمى سيد هارتا السامانى من سانسارا .. من الخطيئة والطمع والحماقة ؟ ! أكان من الممكن أن تعصمه تقوى أبيه ، وعظات معلمه ، ومعرفته الخاصة ، وبحثه الخاص ؟ أى والد ، وأى معلم يمكن أن يحول بينه وبين أن يحيا حياته الخاصة ، من أن يلوث نفسه بالحياة ، وأن يحمل نفسه

بالإثم وأن يتجرع النسراب المر بنفسه ، وأن يجد سبيله الخاص ؟ أتظن يا صديقى العزيز أن أحدا يمكن أن يتجنب هذا السبيل ؟ ربما كان ابنك الصغير ، لأنك تريد أن تراه بمأمن من الحزن والألم وتبدد الأوهام ، ولكن لو أنك مت من أجله عشر مرات ، فلن تغير من مصيره قيد شعرة . »

ولم يكن ڤازوديفا قد تحدث بمثل هذه الاستفاضة فشكره سيد هارتا فى مودة ، وذهب إلى الكوخ مضطرب النفس ، فلم يستطع النوم . إن ڤازوديڤا لم يخبره بشىء لم يكن قد فكّر فيه فعلا ، وتوصل إليه بنفسه . بيد أن حبه لابنه ، وتفانيه وخوفه من فقدانه ، كان أقوى من معرفته . هل أفنى قلبه فى أى إنسان هذا الفناء التام ؟ وهل أحب قط أحدا مثل هذا الحب الأعمى المؤلم البائس ، ومع ذلك كله ينسعر بالسعادة ؟

ولم يستطع سيد هارتا أن يأخذ بنصيحة صديقه ، ولم يستطيع أن يتخلى عن ابنه . فكان يسمح للغلام أن يتأمر عليه ، وألا يرجو له وقارا . كان صامتا ينتظر ، وفى كل يوم يبدأ معركته الخرساء بالصبر ، ومحاولة اكتساب صداقة ابنه . وكان ڤازوديڤا أيضًا صامتا ينتظر فى مودة وتفهم واحتمال . كان كل منهما أستاذا فى الصبر .

وذات يوم عندما ذكره وجه الغلام بكماله ، تذكر سيد هارتا فجأة شيئا أخبرته به كماله ذات مرة منذ أمد بعيد . قالت له إنك

لا تستطيع أن تحب . واتفق معها فى هذا الرأى وشبه نفسه بنجم ، وشبه الآخرين بأوراق متساقطة . ومع ذلك أحس فى كلماتها بشىء من اللوم . والحق أنه لم يفن قط فناء تاما فى شخص آخر بحيث ينسى نفسه . ولم يمر قط بحماقات الحب لشخص آخر . لم يستطع قط أن يفعل شيئا من هذا ..

وحينئذ كان يبدو له أن هذا هو أضخم اختلاف بينه وبين بسطاء الناس . أما الآن بعد أن حضر ابنه ، فقد أصبح سيد هارتا واحدا من الناس ، لا يشذ عنهم فى شىء . كل ذلك بسبب الحزن والحب . كان يحب بجنون ، وكان أحمق بسبب الحب . وها هو يعانى متأخرا ولأول مرة فى حياته أقوى وأغرب عاطفة . كان يتألم ألما مبرحا بسببها . ومع ذلك كان يشعر بالسمو ، وبأنه تجدد على نحو ما ، وأنه صار أغنى .

كان يشعر حقا أن هذا الحب ، هذا الحب الأعمى الذى يكنه لابنه ، هو عاطفة إنسانية جدا ، وأنها من قبيل السانسارا ، أى جدول عكر ذى مياه عميقة . وكان يشعر فى الوقت نفسه أنه ليس عاطفة تافهة ، بل شيئا ضروريا ينبع من طبيعته نفسها . وهذه العاطفة ، وهذا الألم ، وهذه الحماقات ، أمور لابد من معاناتها .

وفى الوقت نفسه ، ترك الابن يرتكب حماقاته ، وتركه يكافح ، وترك أحواله المزاجية المتقلبة تحط من قدره فلم يكن فى

أبيه شيء يجتذبه أو شيء يخشاه . كان هذا الأب رجلا طيبا ، رجلا مهذبا عطوفا ، وربما كان رجلا تقيا ، رجلا مقدسا ، ولكن هذه كلها صفات لا تؤسر الغلام . فهذا الأب الذى يحتفظ به فى هذا الكوخ الحقير يبعث فى نفسه الضجر .

وعندما يجيب على وقاحته بابتسامة ، وعلى كل إهانة بالود ، وعلى كل شقاوة بالعطف ، فهذا هو أبغض مكر يبديه الثعلب العجوز . وكان الغلام يؤثر أن يلجأ أبوه إلى التهديد ، وإلى سوء المعاملة .

وجاء يوم أفضى فيه سيد هارتا الصغير بكل ما يدور فى ذهنه وحمل على أبيه جهارا . وكان أبوه قد طلب منه أن يجمع بعض الأغصان . ولكن الغلام أبى أن يبرح الكوخ .. ووقف هناك متحديا حانقا ، يضرب الأرض بقدميه ، ويضم قبضته وصرح بكراهيته .. واحتقاره فى وجه أبيه تصريحا عنيفا .

صاح مزبدا : « أحضر أغصانك فلست خادمك ، وأنا أعلم أنك لا تضربنى . فأنت لا تجرؤ علي ذلك ، ومع ذلك أعرف أنك تعاقبنى باستمرار ، وتجعلنى أشعر أيضًا بضآلة شأنى بما تظهره من تقوى وتسامح . وأنت تريدنى أن أكون مثلك .. تقيا .. مهذبا حكيما ، ولكننى نكاية فيك ، أفضل أن أصبح لصا قاتلا وأن أذهب إلى الجحيم ، عن أن أكون مثلك . إننى أمقتك وأنت لست أبى ، حتى لو كنت عشيق أمى عشرين مرة ! »

كان مشحونا بالثورة والتعاسة ، فوجد متنفسا له فى سيل من الألفاظ الوحشية الخانقة يصبه على أبيه . ثم انطلق الغلام مسرعا إلى الغابة . ولم يعد إلا فى ساعة متأخرة من المساء . وفى صباح اليوم التالى اختفى تماما . وكذلك اختفت سلة صغيرة ذات لونين من الليف كان الملاحان يحتفظان فيها بالعملات النحاسية والفضية التى يتلقيانها أجرا لهما . والقارب ذهب هو الآخر ، بيد أن سيد هارتا لمحه على الضفة الأخرى من النهر .. لقد هرب الغلام . قال سيد هارتا : « يجب أن أتعقبه » . وكان فى حالة من الكرب العظيم منذ أن ألقى الغلام فى وجهه بتلك الألفاظ الجارحة فى اليوم السابق. « لا يستطيع طفل أن يجتاز الغابة وحده . لابد أن يصيبه مكروه . لابد من أن نصنع رمثا ياڤازوديڤا .. لكى نعبر النهر » .

قال ڤازوديڤا : « ستصنع الرمث لكى نبحث عن زورقنا الذى أخذه الغلام بعيدا .. ولكن دعه يذهب يا صديقى ، إنه لم يعد طفلا . ويعرف كيف يعتنى بنفسه .. إنه يبحث عن الطريق إلى المدينة ، وهو على حق . لا تنس ذلك . إنه يفعل ما أهملته أنت نفسك .. إنه يبحث عن نفسه .. وهو يسلك سبيله الخاص أوه .. ياسيد هارتا .. أستطيع أن أرى معاناتك . معاناتك لألم ينبغى أن يضحك منه المرء . وسرعان ما ستضحك منه أنت نفسك » .

ولم يجب سيد هارتا . كان يقبض على البلطة بيديه فعلا ، وشرع فى بناء رمث من البامبو . وساعده ڤازوديڤا على ربط الأعواد معا بحبل من الحشائش ، ثم أبحرا عبر النهر الذى حملهما بعيدا . ولكنهما وجها الرمث ضد التيار إلى الشاطئ الآخر . سأل سيد هارتا : « لماذا أحضرت البلطة معك ؟ » فأجاب ڤازوديڤا : « من الممكن أن يكون مجداف زورقنا قد ضاع .. »

غير أن سيد هارتا كان يعلم ما يفكر فيه صديقه : فمن المحتمل أن يكون الصبى قد ألقى المجداف بعيدا ، أو كسره على سبيل الانتقام ، ولكى يحول بينهم وبين تعقبه . وفعلا لم يكن هناك مجداف فى القارب . وأشار ڤازوديڤا إلى قاع القارب ، وابتسم ، وكأنما يقول لصديقه : ألا ترى ما يريد ابنك أن يقوله ؟ ألا ترى أنه لا يريد أن يتبعه أحد ؟ ولكنه لم يقل ذلك فى كلمات ، وشرع فى صنع مجداف جديد . واستأذنه سيد هارتا ليبحث عن الصبى . فلم يعترض ڤازوديڤا سبيله .

وجاس سيد هارتا خلال الغابة وقتا طويلا حتى خطرت له هذه الفكرة ، وهى أن بحثه لا طائل وراءه . فإما أن يكون الغلام قد غادر الغابة منذ وقت طويل وبلغ المدينة ، أو إذا كان لا يزال فى طريقه فسوف يختفى عن متعقبه . وعندما أنعم الفكر .. وجد أنه ليس منزعجا بسبب ابنه .. فهو يعلم فى قرارة

نفسه أنه لن يصادف ما يؤذيه ، وأن الخطر لا يتهدده فى الغابة . ومع ذلك واصل سيره حثيثا ، ولا رغبة فى انقاذه ، بل رغبة فى رؤيته مرة أخرى .. وسار حتى بلغ ضواحى المدينة .

وعندما وصل إلى الطريق الرحيب القريب من المدينة .. وقف ساكنا عند مدخل روض المتعة البديع الذى كان ملكا لكمالة ذات يوم .. حيث رآها فوق مقعد .. وانبعث الماضى حيا أمام عينيه ..

فشاهد نفسه مرة أخرى واقفا هناك .. شابا سامانيا ملتحيا عاريا قد ملأ الغبار شعره . . ووقف سيد هارتا هناك زمنا طويلا ، ونفذ ببصره خلال البوابة المفتوحة إلى الحديقة .. وهناك شاهد النساك يتسكعون تحت الأشجار الوارفة .. وقف هناك زمنا طويلا ، يفكر ، تلوح له الصور ، ويستعيد قصة حياته . وقف هناك زمنا طويلا ينظر إلى النساك ، ويرى فى مكانهم سيد هارتا وكماله يسيران تحت الأشجار السامقة .. ورأى نفسه وقد أحاطته كماله برعايتها ، وهو يتلقى منها القبلة الأولى .. ورأى كيف نظر بغطرسة وازدراء إلى أيامه مع السامانى ، وكيف بدا مختالا متلهفا فى حياته الدنيوية . وشاهد كاما سوامى ، والخدم ، والمآدب ، ولاعبى النرد ، والعازفين .. ولاح له طائر كمالة المغرد فى قفصه . عاش كل شيء مرة أخرى ، وتنفس سانسارا ، وعاد مرة أخرى عجوزا متهالكا ، وأحس ثانية بالغثيان وبالرغبة فى

الموت ، وسمع مرة أخرى « أوم » المقدس .

وبعد أن وقف سيد هارتا فترة طويلة إزاء بوابة الحديقة .. أدرك أ الرغبة التى ساقته إلى هذا المكان رغبة حمقاء ، وأنه لا يستطيع مساعدة ابنه ، كما لاينبغى أن يفرض نفسه عليه . وأحس بحب عميق للصبى الهارب . وكأنه جرح ، ولكنه أحس فى الوقت نفسه أن الجرح لن يتقيح فيه ، وإنما سرعان ما يلتئم .

ولأن الجرح لم يلتئم فى هذه اللحظة ، كان حزينا . وفى مكان الهدف الذى أحضره إلى هنا بحثا عن ابنه ، لم يكن سوى الفراغ فحسب . وجلس على الأرض وقد استبد به الحزن . أحس أن شيئا يموت فى قلبه ، لم يعد يرى السعادة أو أى هدف له ..

جلس هناك مكتئبا ينتظر . لقد تعلم هذا من النهر .. أن ينتظر وأن يصبر . وأن ينصت . جلس يصغى فى الطريق الأغبر .. يصغى إلى قلبه الذى يخفق مجهدا حزينا .. منتظرا أن يأتيه صوت .. ورقد هناك مرهف السمع ساعات طوالا ، لا تلوح له الرؤى ، غائصا فى الفراغ تاركا نفسه تغوص دون أن يبصر مخرجا .. وعندما اشتد عليه الجرح ، همس بكلمة « أوم » ، وملأ نفسه بهذه الكلمة .. وأبصر به النساك الذين يتجولون فى الحديقة . ولما كان قد رقد هنا ساعات عديدة ، واجتمع الغبار على شعره الأشيب .. فقد أقبل عليه أحد

النساك .. ووضع أمامه إصبعين من الموز .. بيد أن الرجل العجوز لم يره .

وأيقظته من غفوته يد تلمس كتفه . وتعرف على هذه اللمسة الحانية الحبيبة . فثاب إلى وعيه . ونهض محييا ڤازوديڤا الذى كان قد تعقبه . وعندما أبصر وجه ڤازوديڤا الحنون ، ونظر إلى غضون ضحكته الصغيرة ، وفى عينيه المتألقتين ، ابتسم هو أيضًا . ورأى الآن إصبعى الموز إلى جانبه .. فالتقطهما ، وأعطى واحدا للملاح ، وأكل الآخر .. ثم ذهب صامتا مع ڤازوديڤا خلال الغابة مرة أخرى عائدا إلى المرسى . ولم يتحدث أحد منهما عما حدث .. كما لم يذكر أحد منهما اسم الغلام ، أو يشير إلى هربه ، أو إلى الجرح . واتجه سيد هاتا إلى سريره فى الكوخ .. وعندما تقدم إليه ڤازوديڤا .. بعد برهة ليناوله شيئا من لبن جوز الهند ، ألفاه نائما .

الفصل الحادى عشر

أوم

ظل الجرح ينزف زمنا طويلا . وكان سيد هارتا يعبر النهر بمسافرين كثيرين يصحبون إبنا أو إبنة . فما كان يستطيع أن يتمالك نفسه من أن يحسدهم ،أو يمنع نفسه عن التفكير : الآن ، فهناك أناس كثيرون يملكون هذه السعادة العظمى – فلماذا لم أكن أنا ؟ حتى الأشرار واللصوص وقطاع الطرق لهم أطفال يحبونهم ، ويحبهم أطفال ، إلا أنا ! وعلى هذا النحو الطفولى الذى يتنافى مع المنطق كان يفكر حينذاك . وهكذا إزداد التشبه بينه وبين بسطاء الناس .

إنه ينظر الآن إلى الناس فى ضوء مختلف عن ذى قبل : إنها ليست نظرة ذكية جدا ، أو متكبرة جدا ، ولكنها مع ذلك ، أو من أجل ذلك ، أكثر دفئا وتعاطفا ، وحبا للتعرف .

وعندما يحمل الآن فى زورقه الصنف العادى من المسافرين عبر النهر : رجال الأعمال والجنود والنساء ، يشعر بأنهم لم

يعودوا غرباء عنه كما كانوا من قبل .. وهو وإن لم يكن يفهم أو يشاطرهم أفكارهم وآراءهم ، إلا أنه كان يشاطرهم دوافع حياتهم ورغباتها . ومع أنه بلغ مرتبة عالية من ضبط النفس ، وتحمل جرحه الأخير فى رباطة جأش ، فقد شعر الآن وكأن هؤلاء البسطاء من الناس أخوة له . ولم تعد ألوان غرورهم وشهواتهم وتفاهاتهم تبدو له خالية من المعنى ، بل أصبحت شيئا مفهوما جديرا بالحب ، بل بالاحترام . هناك حب الأم الأعمى لطفلها ، والفخر الأعمى الأحمق لأب يزهو بابنه الوحيد ، والتطلعات العمياء المتلهفة التى تنظر بها امرأة شابة تافهة للزينة وإعجاب الرجال . هذه الدوافع والرغبات الصغيرة البسيطة الحمقاء .. كلها ، وإن تكن قوية حيوية عارمة إلى أقصى حد ، لم تعد تبدو تافهة فى نظر سيد هارتا . فمن أجلها رأى الناس يعيشون ويصنعون أشياء عظيمة . يسافرون ويشنون الحرب ، ويعانون ، ويتحملون ما لا يطاق ، ومن أجل هذا أحبهم . وشاهد الحياة والحيوية ، وما لا سبيل إلى فنائه ، ورأى براهما فى كل رغباتهم واحتياجاتهم . هؤلاء الناس جديرون بالحب والإعجاب فى ولائهم الأعمى ، وفى قوتهم العمياء ، وإصرارهم الأعمى . وفيما عدا شيئا واحدا صغيرا .. شيئا ضئيلا صغيرا ، لم يكن ينقصهم شىء مما يملكه الحكيم والمفكر ، وهذا هو الوعى بوحدة الحياة جميعا . وكثيرا ما راود الشك سيد هارتا فيما إذا

كانت هذه المعرفة .. هذه الفكرة على مثل هذه القيمة العظمى ، ألا يمكن أن تكون هى أيضًا ضربا من التملق - الذاتى الطفولى للمفكرين الذين ربما كانوا مجرد أطفال مفكرين .. إن إناس هذه الدنيا يتساوون مع المفكرين فى كل مجال آخر ، بل يتفوقون عليهم فى كثير من الأحيان ، كما تبدو الحيوانات فى تصرفاتها العنيدة المستقيمة فى حالات الضرورة متفوقة على بنى الإنسان ..

وفى أعماق سيد هارتا ، أخذت معرفة حقيقة الحكمة والهدف لسعيه الطويل ، تنمو وتنضج رويدا رويدا . إنها ليست سوى إعداد للروح .. نوع من القدرة .. فن خفى للتفكير والشعور ، وتنفس أفكار الوحدة فى كل لحظة من لحظات الحياة . هذه الفكرة نضجت فيه نضجا بطيئا ، وانعكست فى وجه ڤازوديڤا العجوز الطفولى : الانسجام ومعرفة الكمال الأبدى للعالم والوحدة ..

بيد أن الجرح مازال واخزا .. فما برح سيد هارتا يفكر فى ابنه فى حنين ومرارة ، ويرعى حبه وشعوره بالحنان نحوه ، فلينخر فيه الألم كما يشاء ، وليكابد كل حماقات الحب .. ذلك أن اللهيب لم يطفئ نفسه ..

وذات يوم ، حينما كان الجرح يوخزه وخزا أليما ، أخذ سيد هارتا يجدف عبر النهر ، وقد استهلكه الحنين ، فخرج من الزورق بغرض الذهاب إلى المدينة للبحث عن ابنه . وكان النهر

ينساب فى عذوبة ورقة ، فقد كان فى موسم الجفاف . غير أن صوته كان يرن رنينا عجيبا .. كان يضحك . أجل ، كان يضحك ضحكة متميزة . كان النهر يضحك بوضوح ومرح من الملاح العجوز . ووقف سيد هارتا جامدا . وانحنى فوق الماء مرهفا أذنيه عله يسمع بوضوح أشد .. فشاهد وجهه منعكسا فى المياه المتحركة بهدوء . وكان فى هذا الانعكاس شىء يذكره بشىء نسيه . وعندما انعكس وجهه على صفحة الماء .. تذكر .. كان وجهه يشبه وجه شخص آخر . كان يعرفه ويحبه . بل يخشاه . إنه يشبه وجه أبيه .. البرهمى .. وتذكر كيف أرغم أباه ذات يوم – وكان شابا حينذاك – أن يدعه يذهب للانضمام إلى الزهاد ، وكيف ودعه وارتحل ، ولم يعد بعد ذلك أبدا .. ألم يعانى أبوه أيضًا نفس الألم الذى يعانيه الآن من ابنه ؟ ألم يمت أبوه منذ مدة – وحيدا دون أن يرى ابنه مرة أخرى . ألم يتوقع هذا المصير نفسه ؟ أليست هذه ملهاة .. شيئا غبيا . هذا التكرار هذا السير للحوادث فى دائرة مقدرة ؟؟

وضحك النهر .. أجل ، هكذا تسير الأمور . كل شىء لم يبلغ نهايته من المعاناة ، ولم يبلغ خاتمته النهائية ، يعود من جديد ، ويعانى الأحزان نفسها . ووثب سيد هارتا إلى الزورق مرة أخرى . وجعل يجدف عائدًا إلى الكوخ متذكرا أباه ، مفكرا فى ابنه ، يضحك منه النهر ، فى مشاقة مع نفسه ، مشرفا على هاوية

اليأس ، وإن لم يكن أقل ميلا للضحك بصوت مرتفع من نفسه ، ومن العالم أجمع . وما فتىء الجرح يوخزه . وما برح متمردا على قدره .. ولكنه لم يظفر بعد بالسكينة ، وبالتغلب على عذابه . ومع ذلك ، كان مفعما بالرجاء . وعندما عاد إلى الكوخ ، كان ممتلئا برغبة لا تقهر للاعتراف إلى ڤازوديڤا ، للإفصاح بكل شىء ، والإفضاء بكل شىء إلى الرجل الذى أجاد فن الإصغاء ..

كان ڤازوديڤا جالسا فى الكوخ يضفر سلة ، إذ لم يعد يعمل على المعدية ، فقد ضعفت عيناه ، وكذلك وهنت ذراعاه ويداه .. ولكن السعادة والطمأنينة الراضية كانتا مشرقتين على وجهه دون تغيير ..

وجلس سيد هارتا إلى جانب الرجل العجوز ، وشرع يتحدث فى تؤدة . فأخبره الآن بما لم يذكره من قبل أبدا ، وكيف ذهب إلى المدينة ، وتحدث إليه عن جرحه الأليم ، وعن حسد لمنظر الآباء السعداء ، وعن نضاله اليائس مع نفسه . وذكر كل شىء .. فهو يستطيع أن يبوح له بكل شىء حتى أشد الأشياء إيلاما . يستطيع أن يصرح بكل شىء ، وكشف عن جرحه ، وأخبره بهربه ذلك اليوم ، وكيف جدَّف عبر النهر بغرض التجول فى المدينة ، وكيف ضحك النهر .

وكلما مضى فى الحديث ، واستمع إليه ڤازوديڤا بوجه رزين ،

أحس سيد هارتا إحساسا أشد حدة عن أى وقت مضى بانتباه ڤازوديڤا الشديد إليه . أحس أن متاعبه وأسباب قلقه تتدفق إليه ، ثم تعود مرة أخرى . وكان الكشف عن جرحه لمستمعه مثل غسله فى النهر حتى يبرد ليصبح هو والنهر شيئا واحدا . وكلما أمعن سيد هارتا فى الحديث والاعتراف ، ازداد إحساسه بأن الشخص الذى أمامه لم يعد ڤازوديڤا .. لم يعد إنسانا ينصت إليه . لقد شعر أن هذا المستمع الذى لا يبدى حراكا ، يمتص اعترافه كما يمتص الشجر مياه المطر ، وأن هذا الرجل الساكن هو النهر نفسه .. هو الإله نفسه هو الأبدية نفسها . وعندما كف سيد هارتا عن التفكير فى نفسه ، وفى جرحه ، استولى عليه هذا الإدراك للتغيير الذى طرأ على ڤازوديڤا . وكلما تأكد منه ، بدا له أقل غرابة ، وازداد تأكده بأن كل شىء طبيعى وفى موضعه الصحيح ، وأن ڤازوديڤا قد كان منذ مدة طويلة - بل دائما تقريبا - على هذا الحال . كل ما فى الأمر أنه لم يكن يدرك ذلك إدراكا تاما ، بل إنه هو نفسه لا يكاد يختلف عنه .. وأحس أنه ينظر الآن إلى ڤازوديڤا كما كان الناس ينظرون إلى الآلهة ، وأن ذلك لا يمكن أن يدوم . وبدأ يفترق - داخليا - عن ڤازوديڤا ، وإن واصل حديثه أثناء ذلك .

وعندما انتهى من الكلام ، وجه ڤازوديڤا نظرته الواهنة إليه . ولم يتفوه بشىء ، غير أن وجهه كان يشع فى صمت بالحب

والطمأنينة ، بالفهم والمعرفة . وتناول يد سيدهارتا ، وقاده إلى المقعد على شاطئ النهر ، وجلس إلى جواره ، وابتسم للنهر ..

قال : « لقد سمعته يضحك ، ولكنك لم تسمع كل شيء .. دعنا نصغى وستسمع المزيد » .

واستمعا .. وترددت أغنية النهر المتعددة الأصوات فى عذوبة . ونظر سيد هارتا فى النهر ، فأبصر صورًا كثيرة فى الماء المنساب .. شاهد أباه وحيدا ، وبأغلال الحنين إلى ابنه البعيد ، وشاهد ابنه وحيدا هو أيضًا ، والغلام يتقدم متلهفا فى الطريق المحرق المفروش بشهوات الحياة .. كل واحد منهما يركز على هدفه ، وكلاهما مملوك بهدفه ، وكلاهما يتعذب . كان صوت النهر ينضح بالأسى ، وكان يغنى فى حنين وحزن ، ساريا نحو هدفه .

وسألته نظرة فازوديفا البكماء : « أو تسمع ؟ » . فأطرق سيد هارتا برأسه مجيبا . فهمس ڤازوديڤا أن يرهف السمع أكثر وتداخلت صورة أبيه وصورته وصورة ابنه .. كل فى الأخرى وظهرت أيضًا صورة كماله ، وامتزجت بالصور الأخرى وصورة جوفيندا ، وصور أخرى ظهرت ومرت ، وأصبحت جميعا جزءًا من النهر . كان هو هدفها جميعا ، الحنين والرغبة والعذاب . وكان صوت النهر زاخرا بالشوق ، مفعما بالفجيعة الموجعة ، حافلا بالشهوة التى لا تشبع . وانساب النهر صوب هدفه . ورأى سيد هارتا أن النهر يسرع فى جريانه ، مُكَوِّنًا منه

ومن أقاربه ومن الناس الذين رآهم جميعا . وأسرعت الأمواج والمياه جميعا معذّبة ، صوب أهدافها .. أهدافها الكثيرة . متجهة صوب الشلال ، صوب البحر ، صوب التيار ، إلى المحيط .. لقد تم بلوغ الأهداف كلها . غير أن كل هدف كان يخلفه هدف آخر . وتحولت المياه إلى بخار وتصاعدت ، ثم أصبحت مطرا وسقطت على الأرض مرة أخرى ، ثم استحالت جدولا وغديرا ونهرا . وتغيرت من جديد وتدفقت من جديد . غير أن الصوت الشيق قد تحول ، إنه مازال يتردد أسيان ، باحثاً ولكن تصاحبه أصوات أخرى . أصوات السعادة والحزن ، أصوات خيرة وشريرة ، ضاحكة ومنتحبه .. مئات الأصوات ، آلاف الأصوات .

وأنصت سيد هارتا .. كان ينصت الآن فى تركيز شديد ، مستغرقا تمام الاستغراق ، خاليا من كل شيء ، حاويا لكل شيء . وأحس أنه قد تعلم الآن تماما فن الإصغاء . وكان قد سمع هذا كله من قبل مرارا وتكرارا . هذه الأصوات المتعددة جميعا صادرة عن النهر ، ولكنها ترن اليوم رنينا مختلفا . ولم يعد قادرا على تمييز الأصوات المختلفة ، الصوت المرح من الصوت الباكى ، والصوت الطفولى من الصوت الرجولى .. إنها تنتمى جيعا بعضها إلى البغض الآخر . عويل أولئك الذين يشتاقون ، ضحك الحكماء ، صيحة السخط ، وأنين المحتضر . كانت كلها

متداخلة متضافرة بآلاف الطرق ، تؤلف نسيجا واحدا . وهذه الأصوات جميعا والأهداف جميعا ، وألوان الحنين والأحزان ، والمسرات ، والخير والشر .. كلها مجتمعة معا هى العالم . كلها مجتمعة معا هى تيار الحوادث ، موسيقى الحياة ..

وعندما أنصت سيد هارتا فى انتباه إلى هذا النهر .. إلى هذه الأغنية التى تتألف من ألف صوت ، وعندما لم يستمع إلى الأسى أو الضحك ، وعندما لم يقيد روحه إلى صوت واحد بعينه ، ليستوعبه فى ذاته ، وإنما أنصت إليها جميعا .. إلى الكل .. إلى الوحدة .. حينئذ كانت الأغنية العظيمة ذات الألف صوت تتألف من كلمة واحدة « أوم » - الكمال .

وسألته نظرة ڤازوديڤا مرة أخرى : « أو تسمع ؟ » . وكانت ابتسامة ڤازوديڤا تشع بالضياء . وكانت ترفرف مشرقة على غضون وجه العجوز كلها . فى الوقت الذى ترفرف فيه « أوم » على أصوات النهر جميعا ، كانت ابتسامته وضاءة وهو ينظر إلى صديقه . والآن ظهرت هذه الابتسامة نفسها على وجه سيد هارتا . كان جرحه يلتئم ، وكان ألمه يتبدد . لقد امتزجت ذاته بالوحدة التى تحتضن الأشياء جميعا ..

منذ تلك الساعة ، كف سيد هارتا عن الكفاح ضد مصيره . وعلى محياه أشرقت سكينة المعرفة .. سكينة شخص لم يعد يواجهه تضارب الرغبات . شخص وجد الخلاص وأمسى فى

انسجام مع تيار الأحداث ، مع تيار الحياة ، مليئا بالتعاطف والمشاركة ، مسلما نفسه للتيار ، منتميا إلى وحدة الأشياء جميعا ..

وعندما نهض ڤازوديڤا من مقعده على شاطئ النهر ، نظر فى عينى سيد هارتا ، فرأى صفاء المعرفة يتلألأ فيهما ، لمس كتفه فى رفق بطريقته العطوف الحانية وقال : « لقد انتظرت هذه الساعة يا صديقى .. وها هى قد وصلت الآن . دعنى أذهب .. لقد كنت ڤازوديڤا .. الملاح وقتا طويلا .. والآن ، اكتمل كل شىء وداعا أيها الكوخ . وداعا أيها النهر ، وداعا ياسيد هارتا » . وانحنى سيد هارتا انحناءة بالغة إزاء الرجل المرتحل .

قال بصوت رقيق : « كنت أعلم ذلك . هل ستذهب إلى الغابات ؟ » فأجاب ڤازوديڤا مبتهجا : « أجل سأذهب إلى الغابات . سأذهب إلى وحدة الأشياء جميعا .. » وهكذا رحل . وجعل سيد هارتا يتابعه .. وفى فرح غامر ، ووقار جليل ، أخذ يراقبه ، فشاهد خطواته عامرة بالسلام ، ووجهه متألقا وهيئته سابحةً فى الضياء ..

الفصل الثانى عشر

جوفيندا

أمضى جوفيندا – ذات مرة – فترة راحة مع بعض النساك الآخرين فى بستان المتعة الذى أهدته كماله الغانية لأتباع « جوتاما » . وهناك سمع حديثا عن ملاح عجوز يعيش على شاطئ النهر ، على مسافة تقطها الرحلة فى يوم . وهذا الملاح العجوز يعتبره الكثيرون حكيما ، وعندما شد « جوفيندا » رحاله ، اختار سبيل المرسى ، تواقا إلى رؤية هذا الملاح . ذلك أنه على الرغم من أنه عاش وفقا للقاعدة ، وكان النساك الأصغر منه سنا ينظرون إليه فى احترام بسبب سنه وتواضعه – على الرغم من هذا ، إلا أن شيئًا من عدم الاستقرار كان لايزال فى قلبه ، كما أنه لم يصل بعد إلى الرضا عن سعيه .

وبلغ النهر ، فطلب من الملاح أن يعبر به النهر . فلما هبطا من الزورق على الجانب الآخر ، قال للرجل العجوز . « أنت تبدى كثيرا من العطف للنساك والحجيج ، وقد عبرت بالكثيرين

منا هذا النهر ، ألست أنت أيضا باحثا عن الطريق القويم ؟ »

وشاعت ابتسامة فى عينى سيد هارتا الكليلتين وقال : « أتسمى نفسك باحثا ، أيها الرجل المبجل ، أنت يامن تقدمت بك السنون وترتدى ثوب النساك من أتباع جوتاما ؟ »

قال جوفيندا . « أنا عجوز حقا ، ولكننى لم أنقطع قط عن البحث ، ولن انقطع أبدا . ويبدو أن هذا هو قدرى . ويبدو لى أنك بحثت أنت أيضا . فهل حدثتنى عن هذا قليلا ياصديقى ؟ » .

قال سيد هارتا . « ماذا يمكن أن أقول لك مما له قيمة ، إلا إذا قلت لك إنك تبحث أكثر من اللازم ، وإنه نتيجة لبحثك هذا ، فإنك لاتستطيع أن تجد .»

فسأله جوفيندا : « وكيف هذا ؟ » قال سيد هارتا : « عندما يبحث إنسان يحدث – فى سهولة تامة – أنه لايرى إلا الشيء الذى يبحث عنه ، وهذا معناه أنه عاجز عن أن يجد شيئا ، أو أن يستوعب شيئا ، وذلك لأنه لايفكر إلا فى الشيء الذى يبحث عنه ، لأن له هدفا ، ولأنه أسير هذا الهدف والبحث معناه .. أن يكون لك هدف . أما العثور فمعناه .. أن تكون حرا ، أن تكون متلقيا ، ألا يكون لك هدف . وأنت – أيها الشيخ الوقور – ربما كنت باحثا بحق ، لأنك بسعيك نحو هدفك لاتبصر كثيرا من الأشياء التى تمر تحت أنفك .»

قال جوفيندا : لست أفهم عنك جيدا . ماذا تعنى ؟ »

قال سيد هارتا : « حدث ذات مرة .. أيها الشيخ الجليل - منذ سنوات عديدة أن أتيت إلى هذا النهر ، ووجدت شخصا نائما هناك ، فجلست إلى جواره لتحرسه أثناء نومه ، ولكنك لم تعرف الرجل النائم ياجوفيندا ؟ »

فبهت الناسك ، وكأنما أصابه مَسٌّ من السحر وحملق فى الملاح ، وتساءل فى صوت يشوبه الوجل :

« أأنت سيد هارتا ؟ لم أتعرف عليك ، هذه المرة أيضا . وأنا سعيد جدا لرؤيتك مرة أخرى ياسيد هارتا ، سعيد غاية السعادة . لقد تغيرت كثيرا ياصديقى . وهل أصبحت ملاحا الآن ؟ »

وضحك سيد هارتا فى حرارة : « أجل ، لقد أصبحت ملاحا .. ولابد لكثير من الناس أن يتغيروا تغيرا كبيرا ، وأن يرتدوا كل أنواع الثياب . وأنا واحد من هؤلاء ياصديقى . مرحبا بك ياجوفيندا . وأنا أدعوك لقضاء الليلة فى كوخى . »

وقضى جوفيندا ليلته فى الكوخ . ورقد على السرير الذى كان يوما لفازوديفا ، وجّه إلى صديق صباه كثيرا من الأسئلة ، وكان فى جعبة سيد هارتا الكثير مما يريد أن يرويه له عن حياته . وعندما حان وقت رحيل جوفيندا فى صباح اليوم التالى ، قال فى شىء من التردد : « قبل أن أمضى فى طريقى ، أود أن

اسألك ياسيد هارتا سؤالا واحدا آخر . هل لك مذهب ، أو عقيدة أو معرفة تعتنقها ، وتعينك على أن تعيش وتفعل الصواب »

قال سيد هارتا : « أنت تعرف ياصديقى أننى حتى عندما كنت يافعا ، وكنا نعيش مع الزهاد فى الغابة ، انتهيت إلى الارتياب فى المذاهب والمعلمين ، وإلى أن أدير ظهرى لهم . ومازلت على نفس هذا الاتجاه العقلى ، وإن كان لى منذ ذلك الحين ، كثير من المعلمين . فهناك غانية جميلة كانت معلمتى فترة طويلة ، وهناك أيضا تاجر غنى ، ولاعب بالنرد . وفى إحدى المناسبات ، وقف منى أحدَ نساك بوذا الحواريين موقف المعلم ، إذ توقف فى رحلة حجه ليقعد إلى جانبى عندما غلبنى النوم فى الغابة .. ومنه أيضا تعلمت شيئا ، وأنا عارف لجميله ، شديد العرفان ، ولكننى تعلمت أكثر من هذا النهر ، ومن سَلفى فازوديفا . كان رجلا بسيطا ، ولم يكن مفكرا ، ولكنه أدرك ما هو جوهرى ، كما أدركه جوتاما .. كان رجلا مباركا ، قديسا »

قال جوفيندا : « يبدو لى ياسيد هارتا أنك مازلت تحب المزاح قليلا . وأنا أصدقك . وأعرف انك لم تتبع أى معلم . ولكن إن لم يكن لك مذهب ، أليس لك أنت نفسك أفكار معينة ؟ ألم تكتشف أنت نفسك معرفةً معينةً أعانتك على الحياة ؟ سيكون من دواعى غبطتى الكبرى أن تخبرنى بشىء من هذا ؟»

قال سيد هارتا : « أجل ، إن لدى أفكارا ومعرفة هنا وهناك . وفى بعض الأحيان ربما امتدت ساعة أو يوما - أحس أننى على وعى بالمعرفة ، كما يحس المرء بالحياة تنبض فى قلبه . كانت لى أفكار كثيرة ، ولكن من العسير على أن أحدثك عنها . ولكن ، إليك هذه الفكرة التى تركت تأثيرها فى نفسى ياجوفيندا . الحكمة لاتقبل التوصيل ، والحكمة التى يحاول الرجل العظيم توصيلها للآخرين ، تبدو دائما حمقاء ؟ »

فتساءل جوفيندا : « أتراك مازحا ؟ »

- « كلا ، وإنما أخبرك بما اكتشفته . المعرفة يمكن أن تكون قابلة للتوصيل ، أما الحكمة فلا . وقد يستطيع المرء أن يعثر على الحكمة ، وأن يتقوى بها ، وأن يصنع الأعاجيب من خلالها ، ولكنه لن يستطيع توصيلها وتعليمها للآخرين . وقد خايلتنى شبهة من هذا عندما كنت شابا . وكان هذا هو مادفعنى بعيدا عن المعلمين . إن عندى فكرة واحدة - ياجوفيندا - قد تظنها مزحة أو جنونا ، وهى أنه فى كل حقيقة ، العكس هو أيضا صحيح ، وعلى سبيل المثال ، لايمكن التعبير عن حقيقة ما وتغليفها فى كلمات إلا إذا كانت متحيزة لجانب واحد ، وكل مايمكن التفكير فيه والتعبير عنه فى كلمات ذات جانب واحد ، أى نصف الحقيقة فحسب ، إنه يفتقر حينئذ إلى الشمول والاكتمال والوحدة ، وعندما كان بوذا المستنير يعلمنا عن العالم ، كان لابد له من

تقسيمه إلى سانسارا ونيرڤانا ، إلى الوهم والحقيقة ، إلى العذاب والخلاص ، ولا مندوحة للمرء عن ذلك ، إذ لايوجد منهج آخر أمام من يتصدون للتعليم . يبدو أن العالم نفسه بوجوده فينا ومن حولنا - لايمكن أن يكون أبدا ذا جانب واحد ، فما من إنسان أو فعل يمكن أن يكون كله سانسارا ، أو كله نيرڤانا . ليس لانسان أن يكون قديسا خالصًا ، أو خاطئا خالصا ، وإنما يبدو ذلك لنا فحسب ، لأننا نعانى من وهم يجعل الزمان شيئا حقيقيا . الزمان ليس حقيقيا يا جوفيندا ، وقد أدركت ذلك مرارا ، فإذا لم يكن الزمان حقيقيا ، إذن فان الحد الفاصل الذى يبدو أنه يقوم بين هذا العالم وبين الأبدية ، بين الشقاء والسعادة ، بين الخير والشر ، هو أيضا وهم » . وتساءل جوفيندا وقد اختلط عليه الأمر « وكيف كان ذلك ؟ » .

- « اسمع ياصديقى .. أنا خاطئ - وأنت خاطئ ، ولكن الخاطئ سيصير براهما ذات يوم ، والآن فإن هذا الـ « ذات يوم » وهم . إنه مجرد تشبيه ، فالخاطئ ليس فى طريقه إلى حالة يصير فيها بوذا ، إنه لايتطور . وإن كان تفكيرنا لايستطيع أن يتصور الأمور إلا على هذا النحو . كلا إن بوذا الممكن موجود فعلا فى الخاطئ ومستقبله قائم هناك .فعلا .

« وهذا البوذا الممكن المستتر ، ينبغى أن نتعرف عليه فيه ، فيك ، فى كل إنسان » .

« ليس العالم ناقصا ياجوفيندا ، ولا يتطور تطورا بطيئا فى طريق طويل إلى الكمال ؛ كلا ، إنه كامل فى كل لحظة ، وكل خطيئة تنطوى فى داخلها على الغفران ، والأطفال الصغار جميعا شيوخ كبار بالامكان . والرضع جميعا يحملون الموت كامنا فيهم - والأموات كافة موعودون بالحياة الأبدية . وليس من الممكن لشخص واحد أن يرى إلى أى مدى بلغ شخص آخر من أشواط الطريق ، إن بوذا موجود فى اللص مثلما هو موجود فى المقامر ، واللص موجود فى البرهمى . ومن الممكن أثناء التأمل العميق نفى الزمان ، ورواية الماضى والحاضر والمستقبل جميعا فى آن معا ، وعندئذ يصبح كل شىء خيرا ، كاملا ، براهما ، ومن ثم ، يبدو لى أن كل ماهو موجود خير - الموت والحياة على حد سواء . الخطيئة والقداسة ، الحكمة والجنون . كل شىء ضرورى ، كل شىء لايحتاج إلا لموافقتى ، وتسليمى وفهمى المحب ، وحينئذ يصبح كل شىء على خير مايرام معى ، ولايستطيع شىء أن يصيبنى بضر . لقد تعلمت عن طريق جسدى وروحى أنه لامفر لى من الوقوع فى الألم ، وأننى فى حاجة إلى الشهوة ، وأنه ينبغى على أن أسعى للتملك ، وأن أعانى الغثيان وأعماق اليأس حتى أتعلم ألا أقاومها ، وحتى أتعلم أن أعشق العالم وأن أكف عن مقارنته بنوع آخر من العالم الخيالى المرغوب فيه ، بنوع من الرؤية الخيالية للكمال ، وإنما

أن أتركه كما هو ، وأن أحبه وأن أكون مسرورا بالانتماء إليه . هذه ياجوفيندا هى بعض الأفكار التى تدور فى خلدى » .

وانحنى سيد هارتا إلى الأرض ورفع حجرا وظل ممسكا به فى يده . قال وهو يتناوله : « هذا حجر ، ولعله أن يصبح تربة بعد فترة معينة من الزمن ، وربما خرج من التربة على هيئة نبات أو حيوان أو إنسان ، وأما فيما سبق من أيامى ، فقد كنت أقول : هذا حجر ولايعدو أن يكون حجرا ، ولاقيمة له ، فهو ينتمى إلى عالم « المايا » ، ولكن لأنه من الممكن أن يصير فى دورة التغير إنسانا أو روحا ، كانت له أهمية هو أيضا . كان هذا مايمكن أن يذهب إليه فكرى ، أما الآن ، فإنى أفكر على هذا النحو : هذا الحجر حجر ، وهو أيضا حيوان وإله وبوذا ، وأنا لا أحترمه وأحبه لأنه كان شيئا وسيصبح شيئا آخر ، ولكن لأنه كان فعلا كل شيء ، وسيصبح دائما كل شيء . وأنا أحبه لأنه مجرد حجر ، ولأنه اليوم والآن يظهر لى على أنه حجر .. وأنا أرى القيمة والمعنى فى كل ملمح من ملاحه ، وكل تجويف من تجاويفه ، فى صفرته ، ورماديته ، وصلابته والصوت الذى ينبعث منه عندما أدقه ، وفى الجفاف والرطوبة على سطحه . وهناك أحجار ذات ملمس كالزيت أو الصابون ، ومنها مايبدو كأوزاق الشجر أو الرمال .. كل واحد فيها مختلف ويعبد « أوم » على طريقته الخاصة ، ولكنه فى الوقت نفسه حجر شديد التحجرية ،

زيتيا كان أو صابونيا . وهذا بالذات هو مايسرنى ، ومايبدو رائعا ، خليقا بالعبادة .. ولكننى لن أقول المزيد من ذلك ، فالكلمات لاتحسن التعبير عن الأفكار ، إذ تتحول دائما فتصبح شيئا مختلفا حالما يتم التعبير بها ، شيئا مشوها ، أرعن إلى حد ما . ومع ذلك ، فإنها تسعدنى أيضا ، ويبدو من الصواب أن مايبدو ذا قيمة وحكمة فى نظر شخص ، يبدو تافها لامعنى له فى نظر شخص آخر » .

وكان جوفندا يصغى فى صمت .

سأل مترددا بعد برهة : «لماذا حدثتنى عن الحجر؟» .

– « لقد فعلت ذلك عن غير قصد . ولكن ربما كان يصور لك أننى أعشق الحجر والنهر ، وكل تلك الأشياء التى تشاهدها ، والتى يمكن أن تتعلم منها . إننى أستطيع أن أحب حجرا ياجوفيندا ، وشجرة ، أو قطعة من اللحاء ، هذه كلها أشياء ، ويستطيع المرء أن يحب أشياء .

« ولكن الإنسان لايستطيع أن يهوى ألفاظا ، وعلى هذا فإن التعاليم لاتجدينى نفعا ، فهى لاتتميز بصلابة أو نعومة ، وليس فيها ألوان ولا أركان أو روائح أو طعوم – ليس فيها شىء سوى الألفاظ ، ولعل هذا مايحول بينك وبين العثور على الخلاص ، وربما كانت هناك ألفاظ أكثر من اللازم . ذلك أنه حتى الخلاص والفضيلة ، والسانسارا والنيرفانا لاتعدو أن تكون مجرد

ألفاظ ياجوفيندا . النيرڤانا ليست شيئا ، ولا وجود لغير كلمة « نيرڤانا » قال جوفيندا : « نيرڤانا ليست مجرد كلمة ياصديقى ، إنها فكرة » . فواصل سيد هارتا حديثه قائلا : « قد تكون فكرة ، ولكن ينبغى أن أعترف ياصديقى ، بأننى لا أفرق كثيرا بين الأفكار والألفاظ . وبكل صراحة ، أنا لاأعلق أيضا أهمية أعظم على الأشياء . فقد كان هنا فى هذا المرسى - على سبيل المثال - رجل كان سلفى وأستاذى .. كان رجلا مقدسا ظل سنوات طويلة لايؤمن إلا بهذا النهر ولاشىء سواه .. وقد لاحظ أن صوت النهر يتحدث إليه .. فتعلم منه ، وكان الصوت يربيه ويلقنه ، وقد بدا له النهر إلها ، وظل أعواما متعاقبة لايعرف أن كل ريح ، وكل سحابة وكل طائر ، وكل برعم ، إلهى أيضا ، وأنه يعرف ويستطيع أن يعلم مثلما يعلم النهر المبجل . ولكن عندما رحل هذا الرجل المقدس إلى الغابات ، كان قد عرف كل شىء ،كان يعرف أكثر مما نعرفه أنت وأنا ، بغير معلمين وبغير كتب ، كل ما فى الأمر أنه آمن بالنهر » .

قال جوفيندا « ولكن هذا الذى تدعوه شيئا ، هل هو شىء حقيقى .. شىء جوانى ؟ أليس مجرد وهم للمايا .. مجرد صورة وظاهر؟ حجرك ، وشجرتك هل هما حقيقتان ؟ »

قال سيد هارتا : « وهذا أيضا لا يزعجنى فى كثير أوقليل . فلو أنها وهم ، فسأكون أنا أيضا وهما ، وهكذا سيكونان دائما

من نفس طبيعتي . وهذا ما يجعلهما خليقين بكل هذا الحب والإجلال ، وهذا ما يجعلنى أحبهما . وإليك هذا المذهب الذى سيضحكك ..

« يبدو لى ياجوفيندا أن الحب هو أعظم شىء فى العالم ، وقد يكون من المهم لكبار المفكرين أن يفحصوا العالم ، وأن يفسروه أو يحتقروه ، ولكننى أعتقد أن الشىء المهم الوحيد هو أن تحب العالم ، لا أن تزدريه ، وليس لنا أن يبغض أحدنا الآخر ، بل أن نكون قادرين على أن ننظر للعالم والى أنفسنا والى كل الكائنات فى حب وإعجاب وإجلال » .

قال جوفيندا : « أفهم هذا . ولكن هذا بعينه ما كان يسميه المستنير وهما . كان يدعو إلى الاحسان والتحمل ، والتعاطف والصبر . ولكنه لم يكن يدعو إلى الحب . كان يحذرنا من تقييد أنفسنا بالحب الأرضى » .

قال سيد هارتا وهو يبتسم ابتسامة مشرقة : « أعرف ذلك . أعرف ذلك ياجوفيندا ، وهنا نجد أنفسنا داخل متاهة المعانى ، وسط صراع الألفاظ . فأنا لا أنكر أن كلماتى عن الحب تناقض تعاليم جوتاما تناقضا ظاهريا - وهذا مايجعلنى أفقد الثقة بالكلمات . لأننى أعلم أن هذا التناقض وهم .

« فإننى أعلم أننى و « جوتاما » لانختلف فى شىء . كيف يمكن - حقا ألا يعرف الحب ، هو إلذى أدرك غرور البشر

ووجودهم العابر ، ومع ذلك فإنه يحب الإنسانية إلى درجة أنه كرس حياة طويلة لمساعدة الناس وتعليمهم ؟ ومع هذا العلم العظيم أيضا ، يبدو لى الشىء أعظم أهمية من الكلمات ، وأعماله وسيرته أهم عندى من الآراء ، فأنا لاأنظر إليه بوصفه رجلا عظيما فى مجال الخطابة أو الفكر ، وإنما فى أعماله وسيرته » .

وأخلد الشيخان إلى الصمت فترة طويلة . ولما أخذ جوفيندا يتأهب للرحيل قال : « أشكرك ياسيد هارتا لإفضائك إلى بشىء عن أفكارك ، وبعضها أفكار غريبة ، ولا أستطيع أن أستوعبها فى الحال . ومهما يكن من أمر ، فأنا اشكرك وأتمنى لك أياما كثيرة يسودها السلام » .

ولكنه كان يفكر فى نفسه على كل حال قائلا : إن سيد هارتا رجل غريب ، وهو يعبر من أفكار غريبة ، وتبدو أفكاره أشبه بالجنون . وما أشد اختلاف معتقدات المستنير عنها . إن أفكاره واضحة ، مستقيمة ، قابلة للفهم ، ولا تنطوى على شىء ، غريب وحشى ، أهل للضحك . يبدو أن يدى سيد هارتا وقدميه ، وعينيه ، وجبينه ، وتنفسه ، وابتسامته وطريقته فى التحية والمشية ، تؤثر علىّ تأثيرا مختلفا عن أفكاره . ولم ألتق قط منذ أن انتقل جوتاما المستنير إلى النيرڤانا .. لم ألتق بأحد اللهم إلا سيد هارتا ، أحسست إزاءه : بأن هذا هو رجل مقدس !

وقد تكون أفكاره غريبة ، وألفاظه حمقاء ، ولكن نظرته ويده ، وبشرته وشعره .. كلها تشع صفاءً وسلامًا ، وسكينة ، ورفقا ، وقداسة لم أرها قط فى أى إنسان منذ وفاة معلمنا المستنير ..

وبينما كان جوفيندا يقلب هذه الأفكار، وكان قلبه نهبا للصراع ، انحنى مرة أخرى لسيد هارتا ونفسه فياضة بالحب نحوه . وكانت انحناءته خفيضة أمام الرجل الجالس فى هدوء .

قال : « سيد هارتا ، نحن الآن شيخان ، وقد لايرى أحدنا الآخر فى هذه الحياة مرة أخرى . وأنا أرى - ياصديقى العزيز - أنك قد وجدت السلام وأدرك أننى لم أجده . قل لى كلمة أخرى واحدة ياصديقى المحترم - قل لى شيئا أستطيع أن أتصوره ، أستطيع أن أفهمه : أعطنى شيئا يمكن أن يساعدنى فى طريقى ياسيدهارتا. فطريقى شاق مظلم فى معظم الأحيان».

وكان سيد هارتا صامتا ، ينظر إليه تلك النظرة الهادئة التى يسودها السلام . ونظر جوفيندا فى وجهه نظرة ثابتة فى شىء من القلق والشوق ، وكان الألم والبحث الدائب والاخفاق المستمر مسطورة فى نظرته .

ورآها سيد هارتا فابتسم .

وهمس فى أذن جوفيندا « مل بالقرب منى . تعالى ، أقرب من ذلك ، على مقربة منى تماما ! وقبلنى على الجبين ياجوفيندا »

ومع دهشته البالغة ، كان جوفيندا مدفوعا بحب عظيم وتوقع

إلى إطاعته ، فمال قريبا منه ، ولثم جبينه بشفتيه ، وما أن فعل ذلك حتى وقع له شيء عجيب .. فبينما كان يفكر فى كلمات سيد هارتا الغريبة ، وبينما كان يجاهد عبثا فى استبعاد تصور الزمان ، وتصور النيرفانا والسانسارا بوصفهما شيئا واحدا ، وبينما كان نوع من الازدراء لكلمات صديقه يتصارع مع حب هائل وتقدير له حدث له هذا :

لم يعد يشاهد وجه صديقه سيد هارتا - وبدلا من ذلك ، شاهد وجوهًا أخرى : وجوهًا كثيرة..سلسلة طويلة ، تيارا مستمرا من الوجوه . مئات - آلاف ، ظهرت جميعا ثم اختفت ومع ذلك بدت كأنها موجودة كلها هناك فى وقت واحد . وكانت هذه الوجوه تتغير كلها باستمرار وتجدد أنفسها ، ومع ذلك كانت كلها سيد هارتا ، ورأى وجه سمكة ووجه شبوطة بفم هائل مفتوح يعبر عن الألم ، سمكة تموت بعينين معتمتين ، وشاهد وجه طفل حديث الولادة ، أحمر مليئا بالغضون ، متأهبا للصراخ ، ورأى وجه قاتل يغمد سكينه فى جسد إنسان وفى نفس اللحظة أبصر هذا المجرم جاثيا على ركبتيه مقيدا بالأغلال ، وقد أطاح الجلاد برأسه . ورأى أجساد الرجال والنساء العرايا فى أوضاع الحب الشهوانى ونشواته ، ورأى جثثا ممدودة ، ساكنة ، باردة جوفاء .. ورأى رؤوس حيوانات وخنازير وتماسيح وفيلة وثيران وطيور . ورأى كريشنا وآجنى ، رأى كل هذه الاشكال والوجوه

فى آلاف العلاقات بعضها مع البعض الآخر ، وكلها يساعد بعضها البعض : محبة ، مُبْغضه ، مُدمرة بعضها للبعض الآخر لتولد من جديد . كان كل منها فانيا ، نموذجا حيا مؤلما لكل ماهو عابر . ومع ذلك لم يمت واحد منهم ، وإنما كان يتغير فحسب ، ويولد دائما من جديد ، ويتخذ باستمرار وجها جديدا . كان الزمان وحده هو الذى يفصل بين وجه وآخر .. وكانت هذه الأشكال والوجوه جميعا تستقر ، وتتدفق ، وتظهر من جديد ، وتسبح عابرة ثم يندمج أحدها فى الآخر . وكان فوقها جميعا باستمرار شيء رقيق غير واقعى ، ولكنه موجود . ممدود عليها كغشاوة رقيقه من الزجاج أو الثلج ، كأنه بشرة شفافة ، صدفة ، صورة أو قناع من الماء - وهذا القناع هو وجه سيد هارتا الباسم الذى لثمه جوفيندا بشفتيه فى تلك اللحظة .. ورأى جوفيندا أن هذه الابتسامة الشبيهة بالقناع ، ابتسامة الوحدة هذه التى تشرف على الأشكال المتدفقة ، ابتسامة التزامن هذه المنتشرة فوق آلاف الولادات والوفيات - ابتسامة سيد هارتا هذه هى نفس إبتسامة جوتاما ، بوذا ، الهادئة ، الرقيقة الغامضة التى ربما كانت رشيقة أو ساخرة أو حكيمة ، ابتسامة جوتاما ذات الألف معنى الذى أبصرها فى رهبة مئات المرات . وكان جوفيندا يعلم أن بهذه الطريقة ابتسم « الكامل » .

ودون أن يدرى هل وُجد زمان أو لم يوجد ، وسواء استغرق هذا الكشف ثانية واحدة أو مائة عام ، أو كان هناك سيد هارتا أو جوتا ما ، ذات أو ذوات أخرى ، فقد كان مجروحا فى أعماقه بسهم إلهى منحه السعادة ، وغمره بالسحر والانتشاء . ووقف جوفيندا برهة منحنيا فوق وجه سيد هارتا المطمئن الذى لثمه منذ لحظات ، والذى كان مسرحا لكل الصور الحاضرة والمستقبلة ، وظلت ملامحه دون تغيير بعد أن اختفت المرآة ذات الألف صورة من صفحته . وابتسم فى سكينة ورفق وربما فى تهكم شديد ، تماما كما كان المستنير يبتسم .

وانحنى جوفيندا إنحناءه خفيضة ، فانهمرت دموع لم يستطع لها دفعا فوق وجهه العجوز .. وقد استبد به شعور بحب عظيم ، وتوقير شديد التواضع ، انحنى حتى لامس الأرض أمام الرجل الذى يجلس هناك بلا حراك . الرجل الذى ذكرته ابتسامته بكل ماأحبه فى حياته ، بكل ما كان قَيِّما مقدسا فى حياته ..

فهرس

صفحة

رقم الإيداع		١٩٨٥ / ٣٤٢٠
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-١٣٢٢-٥	ISBN

١ / ٨٣ / ٣٠٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



هذه القصة

تعنى [سيد هارتا] الرجل الذى بلغ هدفه.. وبالرغم من أنها قصة نسجت من الجو الأسطورى الهندى.. فهى رواية كل إنسان يسير فى طريق البحث عن ذاته الذى يؤدى فى النهاية إلى معرفة الذات العليا..

إنها قصة البطولة الروحية.. ينتقل البطل فيها من طائفة إلى أخرى متجاوزًا كل التعاليم والمذاهب المختلفة لتكون له تجربته الخاصة فى الوصول إلى الحقيقة..

لقد عرض «هرمان هسه» قصته بشاعرية ووجد للحياة والأحياء. ففيها الحرية.. وفيها السمو.. وفيها الإصغاء إلى الوجود.. وفيها الانشغال بالزمان والرغبة فى المعرفة..

إن [سيد هارتا] هو ذلك الإنسان الذى بدأ يحب الحكمة.. وانتهى بحكمة الحب!

ص
٣٠٠